روايات عالمية للشباب والناشئين

الأرض الطيبة

تأليف : بيرل بَك

الحائزة على جائزة نوبل
في الأدب

ترجمة: أكرم مؤمن

مكتبة جزيرة

obeikan.com

بيرل
الأرض الطيبة/ تأليف بيرل؛ ترجمة اكرم مؤمن.
ط١- القاهرة: مكتبة ابن سينا، ٢٠١٤.
١٦٠ ص؛ ١٧ سم (روايات عالمية للشباب والناشئين)
تدمك ٠ ٠٧٩ ٤٤٧ ٩٧٧ ٩٧٨
١- القصص الإنجليزية.
أ- مؤمن، اكرم (مترجم)
ب- العنوان. ٨٢٣
رقم الإيداع: ٢٠١٤/١٤٣٦٣
الترقيم الدولي: 978-977-447-079-0

تصميم الغلاف: إبراهيم محمد إبراهيم
الإخراج الفني: وليد مهني علي

تطلب جميع مطبوعاتنا بالمملكة العربية السعودية من
مكتبة الساعي للنشر والتوزيع
ص.ب ٥٠٦٤٩ الرياض ١١٥٢٣ ـ هاتف: ٤٣٥٣٧٦٨ ـ ٤٣٥١٩٦٦ ـ ٤٣٥٩٠٦٦
فاكس: ٤٣٥٥٩٤٥ جوال ٠٥٥٠٦٧١٩٦٧
E-mail: alsaay99@hotmail.com

مطابع العبور الحديثة – القاهرة
تليفون: ٤٦٦٥١٠١٣ فاكس: ٤٦٦٥١٥٩٩

مكتبة ابن سينا
للنشر والتوزيع والتصدير
نافذتك على الفكر العربي والعالمي من خلال ما تقدمه لك من روائع الفكر العالمي والكتب العلمية والأدبية والطبية ونوادر التراث واللغات الحية. شعارنا: قدم الجديد..
وبسعر رخيص
يشرف عليها ويديرها
مهندس
مصطفى عاشور

٢٦ شارع محمد فريد - النزهة - عين الجديدة - القاهرة
تليفون: ٢٦٢٧٩٨٦٢ - ٢٦٢٥٢٢٨٢ فاكس: ٢٦٢٨٠٤٨٢
Web site: www.ibnsina-eg.com
E-mail : info@ibnsina-eg.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر
لا يجوز طبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل أو اقتباس أي جزء من الكتاب أو تخزينه بأية وسيلة ميكانيكية أو إلكترونية بدون إذن كتابي سابق من الناشر.

obeikandl.com

مقدمة

اخترت قصة «الأرض الطيبة» من بين العديد من روايات القصص العالمي التي قرأتها لأقدمها للقارئ العربي. فقد كانت أشد ما جذبني وأنا في سن الشباب إلى القراءة بالإنجليزية. وقد عاشت مؤلفة القصة –الحائزة على جائزة نوبل في الآداب– لسنوات طوال في مجتمع غريب عنها لكنها أجادت التعرف عليه والغوص في أعماقه، لذلك جاءت قصتها «الأرض الطيبة» تلقائية سلسة فلم نشعر حتى بوجود من يحكي لنا أحداثها على الإطلاق، فنحن إما متابعون للأحداث من خلال شخصية «وانج لانج» أو مرافقون له مثل الكاميرا السينمائية التي تتبعه أينما كان.

وقد نقلت المؤلفة ببراعة كل ما قرأنا عنه من عادت أو اعتقادات صينية سائدة في العصر الذي تحدثت عنه (أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين) فعرفنا عادة ربط أقدام الإناث منذ الصغر حتى لا تكبر وعادة تلوين البيض باللون الأحمر وتوزيعه عند قدوم مولود ذكر بالإضافة إلى تفضيل الذكر على الأنثى في أمور كثيرة وقبول الأنثى لذلك برضا وتضحية إلى ما لا نهاية. وقد عبرت شخصية البطلة الرئيسية «أولين» عن ذلك بكل براعة ودون حديث أو شرح.

كما كانت المؤلفة من البراعة بحيث لم تنه قصتها بوفاة البطل رغم تمهيدها لذلك، فهذا البطل هو القصة ذاتها. وعليه فإنها تركت

النهاية المعروفة مسبقًا للقارئ كي يتوقعها بدلًا من أن تصدمه بموت هذا البطل فيجد القارئ نفسه وحيدًا بين أوراق القصة بعدما فقد الدليل الذي رافقه منذ بدايتها. كما أنها تجنبت بذلك المزيد من لحظات الحزن والموت والتي سبق وأن نقلتها للقارئ عند موت عدد من أبطال القصة الآخرين.

وأنا لم أتدخل في القصة سوى بالقليل جدًا، حيث وضعت عناوين لفصولها بدلاً من ذكر الأرقام فقط. كما وضعت عناوين جانبية داخل كل فصل لمساعدة القارئ على مواصلة القراءة لفترة أطول.

وأخيرًا أتمنى أن تكون ترجمتي لهذه القصة العالمية قد نقلت كل ما أرادت المؤلفة توصيله إلى القارئ وأن تعجب القارئ العربي ويستفيد من قراءتها.

والله الموفق،،

المترجم
أكرم مؤمن

Akram_momen@hotmail.com

نبذة عن المؤلفة

بيرل بك 1892-1973م

ولدت «بيرل بك» ابنة أحد المبشرين الأمريكيين في «هيلسبرو» غرب فرجينيا، لكنها انتقلت بصحبة والديها إلى الصين وهي لم تتجاوز الأشهر الثلاثة الأولى من عمرها، لذلك فقد نشأت «بيرل بك» وهي تجيد الحديث بالإنجليزية والصينية منذ نعومة أظافرها. وقد تلقت تعليمها الأولي على يد أمها ثم أدخلت إلى مدرسة في شنغهاي . وعندما بلغت السابعة عشر صاحبت أسرتها إلى أوروبا حيث تلقت تعليمها الجامعي هناك.

عادت «بيرل بك» إلى الصين بعد الانتهاء من دراستها الجامعية وكان عليها أن تعتني بشئون أمها المريضة بمرض خطير لمدة عامين.

obeikandl.com

وبعد شفاء أمها رحلت مع أسرتها إلى شمال الصين. وبعد خمس سنوات انتقلت الأسرة إلى «نانكنج». وقد عاصرت الأسرة خلال السنوات العشر التالية قيام الثورة الصينية وبداية الحياة الحديثة للشعب الصيني.

وقد قضت «بيرل بك» جزءًا طويلا من حياتها تُدرس اللغة الإنجليزية في الجامعات الصينية، حيث عاشت غالب الأربعين عامًا الأولى من عمرها هناك. وكان اهتمامها ينصب في الأساس على البشر سواء كانوا من الصين أو من الولايات المتحدة أو من أي جنسية أخرى. وكانت تطمح إلى أن تكون شخصيات قصصها واقعية للغاية وهو ما نجحت فيه تمامًا.

وكانت كل كتب «بيرل بك» الأولى عن الصين، ثم قررت الكتابة عن الحياة الأمريكية في عام 1945م، فوقعت على تلك القصص باسم «جون سيدج». وقد لاقت القصص نجاحًا قبل الكشف عن أن مؤلفتها هي «بيرل بك». وتعتبر قصة «الأرض الطيبة» أشهر قصصها وأحبها إلى القراء.

ذاعت شهرة «بيرل بك» بعد نشرها قصة «الأرض الطيبة» ولم تحظ أي من رواياتها الطويلتين بنفس القدر من الشهرة والانتشار، مع أنها كتبت «أبناء وانج لانج» وهي من حكاياتها الرائعة، وكذلك كتبت «العائلة المشتتة» والتي يراها النقاد متممة لثلاثيتها عن الصين. ومن أجمل ما كتبته «بيرل بك» سيرتها الشخصية حيث تحكي عن المدن التي سافرت إليها مثل الهند واليابان وكوريا وفيتنام والصين بالطبع، لذلك اشتهرت بلقب «عاشقة الشرق الأقصى».

وفي عام 1917تزوجت بيرل من رجل من ولاية كنزاس منتدب لدراسة

الزراعة في الصين، واستقر الزوجان في بلدة صغيرة شمال الصين حيث عانيا من شظف العيش وصعوبة الحياة. حيث وصفت الكاتبة حياتها في تلك البلدة في كتابها الأرض الطيبة. انتقلت بعد ذلك مع زوجها إلى مدينة نانكين حيث عملت في التدريس في الجامعة القديمة ثم سافرت لإكمال تعليمها مع زوجها إلى الولايات المتحدة. هناك أنهت بيرل دراسة الأدب الإنجليزي بتفوق، بل وحازت على جائزة عن بحثها (الصين والغرب). ومن المعروف أن «بيرل بك» انكبت على قراءة القصص منذ نعومة أظافرها، وقد كتبت أنها تأثرت بقصة علاء الدين والمصباح السحري كثيرًا. و«لبيرل بك» إنتاج متعدد وغزير. ونظرا لأن معظم كتاباتها مستوحاة من الحياة في الصين لقبت بالكاتبة الصينية.

نالت بيرل بك جائزة نوبل في الآداب عام 1938م وكذلك نالت جائزة بوليتزر في الآداب. وماتت «بيرل بك» عام 1973م قبل شهرين فقط من اكتمال عامها الحادي والثمانين. وقد تركت أكثر من سبعين كتابًا في موضوعات متنوعة منها: القصة والمجموعات القصصية والمسرحيات والسيّر وسيرة ذاتية والشعر وأدب الأطفال بالإضافة إلى ترجمات لكتب صينية.

obeikandl.com

1 يوم الزفاف

إنه يوم زفاف «وانج لانج». فتح عينيه ورأى الظلام يحيط به من خلال الستائر المحيطة بفراشه، إلا أنه لم يعرف لماذا يبدو هذا الصباح مختلفًا عن أي يوم آخر. كان البيت هادئًا إلا من سعال أبيه الخفيض في الغرفة المواجهة لغرفته مرورًا بصحن البيت. كان سعال هذا الرجل الكهل هو أول ما يَسمعه «وانج لانج» صباح كل يوم. وكان «وانج لانج» عادة ما يظل مستلقيًا بعد استيقاظه على صوت سعال أبيه، كان يتحرك فقط عندما يسمع الصوت يقترب ويسمع صوت باب غرفة أبيه يفتح.

لكنه لم ينتظر هذا الصباح. فقد قفز وأبعد الستائر المسدلة حول فراشه. كان وقت الشروق فانبعث شعاع من الضوء من خلال ثقب مربع ضيق في الشباك محشو بقطعة من الورق. ذهب إلى الثقب وأزال الورقة.

قال في نفسه: «نحن في الربيع ولا حاجة لنا بهذه الآن.»

لقد كان محرجًا من أن يقول أنه تمنى أن يبدو البيت أنيقًا هذا اليوم. أخرج يده من الثقب ليستشعر الجو. هناك رياح خفيفة من جهة الشرق، إنها رياح متوسطة محملة بالأمطار. لكنها لن تمطر اليوم، ومن المحتمل سقوط المطر بعد عدة أيام. إذا استمرت هذه الرياح، قد يأتي المطر.

هرول إلى صحن البيت وهو يرتدي سرواله الخارجي الأزرق ويحكم حزامه القطني الأزرق على خاصرته أثناء المشي. لقد ترك نصف

جسده العلوي عاريًا حتى يسخن الماء ليغتسل. توجه إلى المخزن بالمطبخ الموجود أمام المنزل، وكان الثور يخرج رأسه منه فأصدر خوارًا عاليًا عندما رآه. كان المطبخ مبنيًا من الطوب اللبن مثل المنزل؛ أخذ جده الطمي في شبابه من أرضهم وبنى به هذا البيت والموقد أيضًا الذي اسود لونه من كثرة الاستخدام في إعداد الطعام لسنوات عديدة. وضع «وانج لانج» فوقه وعاء معدنيًا كبيرًا.

ملأ الوعاء بالماء لكنه لم يملأه تمامًا، وكان يصب الماء من إبريق فخاري قريب منه، بحرص لأن الماء غال. لكنه فجأة رفع الإبريق وأفرغه في الوعاء المعدني. فاليوم سيغسل سائر بدنه.

ذهب إلى خلف الموقد واختار حفنة من أعواد الحطب الجافة القائمة في ركن المطبخ ووضعها بعناية في فتحة الموقد ليستفيد من كل عود، وباستخدام الحجر القديم أشعل النار ووضعها بين أعواد الحطب فاشتعلت جميعها.

هذه هي آخر مرة يضطر فيها إلى أن يشعل نارًا. لقد تعوّد أن يفعل ذلك صباح كل يوم منذ وفاة والدته قبل ستة أعوام. فقد تعود الرجل العجوز أن يأتي له ابنه بالماء الساخن صباح كل يوم من أيام هذه الأعوام الستة ليساعده على التخلص من السعال الصباحي. والآن يستطيع الأب والابن أن يرتاحا. ستأتي امرأة للبيت.

خفتت النيران قليلًا بينما كان «وانج لانج» يفكر في هذا الأمر. ظهر العجوز من فتحة الباب وهو يسعل وقال وهو يتنفس بصعوبة: «لماذا لم تأت بالماء الساخن لتدفئة رئتي؟»

شعر «وانج لانج» بالخجل وقال مغمغمًا وهو بجوار الموقد: «هذا الحطب رطب، الريح رطبته ... .»

استمر سعال العجوز ولم يتوقف حتى غلي الماء. فصب «وانج لانج» بعض الماء في صحن، وبعد قليل فتح علبة على رف فوق الموقد وأخذ منها عدة أوراق جافة وألقاها على سطح الماء. راقبته عيون العجوز في شغف وبدأ يتذمر: «لماذا كل هذا الإسراف، الشاي مثل الفضة.»

رد «وانج لانج» وهو يضحك ضحكة قصيرة: « ليس اليوم .. لنأكل ونستريح.»

تناول العجوز الإناء وأخذ ينظر إلى الأوراق المفرودة التي انتشرت على سطح الماء، وهو لا يصدق أنه سيشرب هذا السائل الثمين.

قال «وانج لانج»: «سيبرد.»

رد العجوز: «حقًا .. حقًا.» وبدأ يشرب الشاي الساخن. لكنه لم ينس أن ينظر إلى «وانج لانج» وهو يصب الماء في وعاء خشبي عميق.

فقال العجوز فجأة: «ألم يتبق أي ماء ؟»

رد «وانج لانج» بصوت خافت: «لم استحم منذ بداية العام.» وأسرع خارجًا وهو يحمل وعاء الماء الخشبي إلى غرفته. لم يكن الباب يغلق بإحكام. فذهب الرجل العجوز إلى جوار الباب عبر صحن البيت ووضع فمه على فتحة الباب وصاح: «ستكون بداية غير سعيدة لهذه المرأة .. شاي في الصباح ... وكل هذا الماء للاستحمام.»

فصاح «وانج لانج»: «إنه يوم واحد فقط.» ثم أضاف: «كما أنني سأرش الماء على الأرض بعد الاستحمام وبذلك لن يكون ماء مهدرًا.»

وهنا صمت العجوز، وفك «وانج لانج» حزامه وخلع ملابسه على ضوء من شعاع الشمس الداخل عبر فتحة مربعة. وعصر فوطة صغيرة مبللة بالماء الساخن وأخذ يدعك بها جسده الداكن النحيل. ثم ذهب إلى صندوق كان يخص والدته واخرج منه حُلة جديدة من القطن الأزرق.

قد يشعر بالبرد قليلًا هذا المساء بسبب عدم ارتداءه للملابس الشتوية الثقيلة، لكنه لا يريد أن تراه المرأة لأول مرة وهو في ثيابه الممزقة القذرة. فهي ستنظفها وتصلحها فيما بعد، ولكن ليس في أول يوم. لبس السترة القطنية والسروال الأزرق، وثوبه الطويل الذي لا يلبسه سوى في الأعياد فقط، وأيام الأعياد كما يعرف الجميع هي عشرة أيام فقط في السنة أو أقل. ثم فرد شعره بأصابعه بحركة سريعة، فتدلى على ظهره، ثم أخذ مشطًا خشبيًا من درج في منضدة صغيرة وبدأ يمشط شعره.

اقترب أباه مرة أخرى ووضع فمه عند فتحة الباب وقال متبرمًا: «ألن آكل شيئًا اليوم ؟» وأضاف: «في مثل سني تكون العظام ضعيفة في الصباح حتى نتناول الطعام.»

قال «وانج لانج» وهو يمشط شعره بسرعة وعناية: «إني قادم.» وبعد لحظة خلع ثوبه الطويل ولف ضفيرته حول رأسه، وخرج وهو يحمل وعاء الماء. كان قد نسي الإفطار تمامًا. سيقلب وجبة من حبوب الذرة في الماء ويعطيها لوالده. إما بالنسبة له هو، فقد لا يأكل شيئًا.

وضع قدرًا ضئيلًا من الماء في الغلاية بعد أن استخرجه في دلو من البئر القريب من الباب. غلي الماء بسرعة فقلّب الوجبة وحملها لوالده.

دخل «وانج لانج» غرفته ولبس ثوبه الأزرق الطويل مرة أخرى وأسدل شعره. ربما يحتاج لحلاقة شعره. لكن الشمس لم تبزغ بعد. يمكنه أن يمشي في شارع الحلاقين بالمدينة ويحلق ذقنه قبل أن يذهب ليأتي بزوجته التي تنتظره. فإذا كانت نقوده كافية فسيفعل ذلك.

أخرج من حزامه كيسًا صغيرًا من القماش الرمادي وعد ما به من نقود. كانت ستة قطع فضية وحفنة عملات نحاسية. لم يخبر والده حتى الآن أنه دعا أصدقاءه لتناول العشاء هذه الليلة. لقد دعا عمه وابن عمه وثلاثة من جيرانه من الفلاحين. وهو ينوي أن يحضر لحومًا وسمكة

صغيرة وبضع حبات من جوز الهند. وقد يحضر قطعة صغيرة من لحم البقر لتطبخ مع بعض ما زرعه من كرنب بحديقة المنزل. ولكن كل ذلك سيحدث إذا تبقى معه مال بعد شراء الزيت وفول الصويا، أما إذا حلق شعره فقد لا يستطيع شراء لحم البقر. ولكنه قرر بسرعة، سيحلق شعره.

ترك الرجل العجوز وخرج في الصباح الباكر. كانت الشمس تشرق، فيلمع ضوؤها على قطرات الندى المتساقطة على أوراق نبات القمح والشعير. انحنى «وانج لانج» لينظر إلى الزهور الصغيرة التي لم تتفتح بعد. كانت صغيرة وتنتظر سقوط المطر. نظر إلى السماء، فوجد أن السحب محملة بالأمطار فهي قاتمة اللون.

مر في طريق ضيق بين الحقول. تبدو المدينة من بعيد بمبانيها الرمادية. هناك البيت الذي تقيم فيه المرأة التي كانت أمة تعمل فيه منذ طفولتها، إنه بيت عائلة «هوانج». قال له البعض: «إن حياتك وحيدًا أفضل من أن تتزوج أمة في بيت كبير.» لكنه عندما سأل والده: «ألن أتمكن من الزواج أبدًا ؟» أجابه والده: «عندما تكون تكاليف الزواج مثلما هي الآن وتطلب النساء أقراطًا ذهبية وملابس حريرية قبل الزواج، فلن يصبح أمام الفقير فرصة للزواج سوى من الإماء.»

ثم بعد ذلك ذهب والده إلى منزل عائلة «هوانج» وسأل عما إذا كانت هناك أمة يزوجها لابنه. وأضاف: «ليست شابة، ولا جميلة أيضًا على كل حال.»

تضايق «وانج لانج» من أن زوجته لن تكون جميلة. وعندما لاحظ والده الغضب على وجهه صاح فيه: «وماذا سنفعل بزوجة جميلة ؟ نحن نريد امرأة تعتني بشئون المنزل وتعمل في الحقول. نحن فلاحون.»

لاحظ «وانج لانج» أن أباه قد صدقه الحديث فقال: «ولكن لا أحب أن تكون ذات تشوهات بسبب المرض أو أنها تكون ذات شفة علوية

مشقوقة.» رد والده: «سنرى ماذا سيحدث.» اشترى «وانج لانج» وأبوه سواران من الفضة مطليان بالذهب وقرطًا، حيث أخذهم أبوه إلى سيدة هذه الأمة عندما وافقت على الزواج. ولم يعرف «وانج لانج» أي شئ عن المرأة التي ستصبح زوجته، سوى أنه سيذهب اليوم ليحضرها.

● **المدينـــة:**

مر في ظل بوابة المدينة الرطيب. السقاة يمرون هنا وهناك طوال اليوم. دائمًا ما يكون هذا الممر أسفل البناء المقام على بوابة المدينة رطبًا، فهو مبني من الطوب والطمي. وعلى الرغم من أن الموسم لم يبدأ بعد إلا أنه كانت هناك سلال معروضة بجانب الجدران وبها حبات الخوخ الأخضر.

حدث «وانج لانج» نفسه قائلًا: «إذا كانت تحبه فسأشترى لها بضع حبات في طريق عودتنا.» لم يصدق نفسه أنه عندما يخرج من هذه البوابة ستكون معه امرأة تمشي خلفه.

ذهب إلى جهة اليمين بعد خروجه من البوابة وبعد قليل كان في شارع الحلاقين. إنه يرى بعضهم وقد حضروا مبكرين. كلهم بالشارع يقفون خلف الكراسي الصغيرة. ذهب «وانج لانج» إلى أكثرهم بعدًا عنه وجلس على كرسي أمامه. جاء الحلاق بسرعة وبدأ يصب الماء الساخن في حوض.

قال الحلاق: «ستحلق كل شعرك ؟»

رد «وانج لانج»: «كما تريد .. كما تريد.»

وبعد أن سمح للحلاق أن يضع الصابون على مقدمة رأسه قال له: «ليس من اللائق أن يحلق الفلاح شعره من المقدمة، السائد الآن هو إزالة الضفيرة.»

وعندما اقترب الحلاق من كتلة شعر مستديرة في أعلى رأس «وانج لانج» صرخ قائلًا: «لا أستطيع قصها قبل أن أسأل أبي.» ضحك الحلاق وتركها كما هي.

عندما انتهت الحلاقة وعد الحلاق نقوده بيده. كان «وانج لانج» مذهولًا. لقد تقاضى الحلاق مالًا كثيرًا. لكنه سرعان ما سار في الشارع مرة أخرى وقال لنفسه والهواء المنعش يلمس جلده المحلوق: «إنها مرة واحدة.»

ذهب إلى السوق واشترى رطلين من لحم البقر. وعندما فرغ من شراء كل شئ بما في ذلك الفول المطبوخ، اشترى أيضًا عودين من البخور. ثم توجه في خجل شديد إلى منزل عائلة «هوانج».

وعندما أصبح أمام بوابة المنزل شعر برعب شديد. فهو لم يدخل بيتًا كبيرًا من قبل. مر وقت طويل وهو يقف عند البوابة ينظر إليها. كانت مغلقة ويقف أسدان مصنوعان من الحجر كحراس على جانبي البوابة. ولم يكن هناك أي شخص آخر.

شعر بدوار فجأة. فهو لم يتناول أي طعام. ذهب إلى مطعم صغير ووضع بنسين على المائدة التي يجلس عليها. اقترب منه النادل وهو طفل قذر يرتدي مريلة سوداء فصاح فيه: «صحنان من المكرونة.» وعندما جاءه الصحنان التهم ما فيهما بشراهة.

سأله الطفل: «أتريد المزيد ؟»

هز «وانج لانج» رأسه. ثم وقف ونظر حوله. فوجد بعض الرجال إما يأكلون أو يشربون الشاي. إنه مطعم يأكل فيه الفقراء. وهو يبدو وسيمًا بينهم، بل إنه يبدو متيسر الحال.

جلس «وانج لانج» بينما كانت الشمس ترتفع من الشرق، ثم جاءه

النادل الصغير وهو غاضب وقال له: «إذا كنت لن تطلب أي شئ آخر فعليك أن تدفع أجرة الكرسي.»

غضب «وانج لانج» وكان سيغادر المكان، لكنه عندما تذكر الموقف حيث سيذهب إلى منزل عائلة «هوانج» ويسأل عن المرأة تصبب العرق على كامل جسده.

فقال للنادل الصغير: «اعطني شاي.» وقبل أن ينهي كلامه رد الصبي بحدة: «وأين البنس ؟»

لم يجد «وانج لانج بدًا من أن يخرج بنسًا آخر من كيس نقوده. شرب الشاي بعد ذلك بسرعة وخرج من الباب الجانبي إلى الشارع. واتخذ طريقه إلى البوابة الكبيرة ببطء.

● **البيت الكبير:**

هذه المرة كان الوقت ظهرًا، وكانت البوابة مفتوحة وحارسها بجوارها لا يفعل أي شئ. كان ينظف أسنانه بقطعة من خشب البامبو بعد أن تناول وجبته. وعندما أقبل «وانج لانج» صاح فيه بخشونة: «أنت.. ماذا تريد؟»

رد «وانج لانج» بصعوبة كبيرة: «أنا الفلاح ... وانج لانج.»

قال الحارس الذي لا يحترم إلا الأغنياء من أصدقاء سيده وصديقات سيدته: « الفلاح وانج لانج .. وماذا تريد ؟»

همس «وانج لانج»: «جئت من أجل المرأة.» رد الحارس بقوة: «أهو أنت .. لقد أخبروني أن عريسًا سيأتي اليوم .. لم أتوقع أنه أنت وأنت تحمل هذه السلة على ذراعك.» قال «وانج لانج»: «بها بعض اللحم.» وأنتظر من الحارس أن يدله على الطريق داخل البيت الكبير. لكن الحارس لم يتحرك.

وعندما لاحظ الحارس أن «وانج لانج» لم يفهم، فقال له الحارس: «قطعة من الفضة تفتح لك الطريق.»

وأخيرًا فهم «وانج لانج» أن الحارس يريد منه مالًا. فقال له: «أنا رجل فقير.» فرد عليه الحارس: «دعني أرى ما في كيس نقودك.» لكنه ابتسم ابتسامة عريضة عندما هز «وانج لانج» ما تبقى من مال في يده اليسرى. كانت قطعة واحدة من الفضة وأربعة عشر بنسًا من النحاس.

قال الحارس: «سآخذ الفضة واستدار ودخل من البوابة وهو يصيح:»العريس .. .. العريس.»

لم يستطع «وانج «لانج» أن يفعل أي شئ سوى أن يتبع الحارس. فالتقط سلته وتبعه دون أن ينظر يمينًا أو يسارًا. كان وجهه ساخنًا ورأسه منحنيًا وهو يمشي من قاعة إلى قاعة ويسمع الضحكات من كل جانب. وفجأة وبعد أن تخيل له أنه قد مر بمائة قاعة كان الحارس قد توقف ودفع به إلى غرفة انتظار صغيرة، حيث انتظر هناك ودخل الحارس إلى داخل البيت وعاد بعد لحظة وقال: «أمرت سيدتي الكبيرة بأن تمثل بين يديها.»

تحرك «وانج لانج» بسرعة لكن الحارس أوقفه وصاح في سخرية: «لا يمكنك أن تمثل أمام سيدة عظيمة وأنت تحمل سلة في ذراعك.»

قال وانج لانج: «حقًا .. حقًا.» لكنه لم يجرؤ على ترك السلة خوفًا من أن تسرق محتوياتها. لاحظ الحارس حيرته وصاح في تأفف: «في بيت كهذا نطعم الكلاب بهذا اللحم.» وأمسك بالسلة ووضعها خلف الباب ودفع «وانج لانج» أمامه إلى قاعة لم يرها من قبل.

رأى سيدة طاعنة في السن تجلس في وسط الغرفة التي أمامه، يلتف جسدها الصغير في رداء من قماش الستان الرمادي. خر «وانج

لانج» على ركبتيه وحنى رأسه للأرض. قالت السيدة العجوز لحارس البوابة «دعه يقف .. .. هل أتى ليأخذ زوجته ؟».

رد الحارس: «نعم .. .. الأمة الكبيرة.»

نظرت السيدة العجوز إلى «وانج لانج» نظرة تفحص وقالت له: «هل جئت من أجل الأمة التي تدعى «أولين». أتذكر أنني وعدت أحد الفلاحين بالزواج منها. وهذا الفلاح هو أنت ؟»

رد «وانج لانج»: «نعم .. هو أنا.»

قالت السيدة العجوز لفتاة من الإماء كانت تقف بجوارها: «استدعي «أولين» بسرعة.» وفي لحظة عادت الفتاة وهي تمسك بيدها أمة أخرى طويلة وترتدي ثوبًا نظيفًا من القطن الأزرق. نظر «وانج لانج» إليها نظرة واحدة لكنه أبعد نظره عنها فقد كان قلبه يخفق. هذه هي زوجته.

قالت السيدة العجوز وهي تبدي عدم الاهتمام: «تعالي هنا أيتها الأمة .. هذا الرجل جاء ليأخذك. هل أنت مستعدة.»

ردت المرأة ببطء: «نعم مستعدة.»

سمع «وانج لانج» صوتها لأول مرة ونظر إليها وهي تقف أمامه. إن صوتها جميل إلى حد ما، غير منخفض وغير مرتفع، ليس رفيعًا ولا غليظًا. كان شعرها مصففًا وثوبها نظيف. إلا أنه تأسف عندما لاحظ أن قدميها كبيرتان. ثم قالت السيدة العجوز لحارس البوابة: «احمل صندوقها إلى خارج البوابة ودعهما يذهبان.» ثم قالت لـ«وانج لانج»: «قف بجانبها وأنا أحدثكما.» وعندما تقدم «وانج لانج» قالت له: «لقد جاءت هذه المرأة إلى بيتنا وهي طفلة ذات عشر سنوات وعاشت هنا حتى الآن، وعمرها الآن عشرون عامًا. وقد اشتريتها من أبويها عندما قدموا من الجنوب أثناء مجاعة عندما لم يجدوا

ما يأكلونه. هي ليست جميلة ولا ذكية. لكنها تنفذ ما تؤمر به جيدًا وأخلاقها حسنة. خذها وأحسن معاملتها. إنها أمة جيدة وإن كانت بطيئة وغبية. ولو كنت قد أحسنت التفكير لاحتفظت بها لوقت أطول فهي جيدة في أعمال المطبخ. لكنى أزوج إمائي عندما يتقدم إليهن أي خاطب.»

ثم قالت للمرأة: «أطيعيه وأسعديه بالكثير من الأبناء، وتعالي إلىّ بأول طفل لأراه.» قالت الأمة: «أمرك.. .. سيدتي الكبيرة.»

قالت السيدة العجوز: «حسن .. اذهبا الآن.» انحنى «وانج لانج» بسرعة ثم استدار وخرج ومن خلفه امرأته وحارس البوابة وهو يحمل الصندوق على كتفه. وضع الحارس الصندوق في الغرفة التي ترك بها سلة «وانج لانج» واختفى دون أن ينطق بأي كلمة.

ثم استدار «وانج لانج» إلى المرأة ونظر إليها لأول مرة. إن وجهها يعطي انطباعًا بالإخلاص والصبر. أنف قصير وعريض وفم واسع. عيناها صغيرتان ولونهما أسود ومليئتان بالحزن. رأى «وانج لانج» القرط الذي أهداه لها في أذنيها والأساور المطلية بالذهب في يديها. لكنه لم يظهر سعادته. أخيرًا.. زوجته معه.

قال: «معنا صندوق وسلة.» فانحنت دون أن تنطق وحملت الصندوق من أحد جوانبه على كتفها وحاولت أن تنهض به. وهنا شاهدها وقال بسرعة: «سأحمل أنا الصندوق. احملي أنتِ السلة.»

حمل الصندوق على ظهره غير مبالٍ بما يمكن أن يحدث لأفضل ثيابه، وحملت هي السلة.

فكر في المائة قاعة التي يجب أن يمر بها ويسمع الضحكات وغمم وهو يسير: «لو كانت هناك بوابة جانبية.» فقادته إلى طريق

يمر بقاعة صغيرة غير مستخدمة ثم بها باب مستدير قديم خرجا منه إلى الشارع.

نظر إليها مرة أو مرتين بينما كانت تمشي بجواره كما لو كانت تعيش معه طوال عمرها، لا يظهر على وجهها العريض أي تعبير. وعند بوابة المدينة وقف وتحسس ما بقى من نقوده وأخرج من كيسه بنسين اشترى بهما ست حبات خضر من الخوخ.

قال لها: «خذي هذا وكليه أنت بمفردك.» تناولته بشغف وأمسكت به في يدها دون تعليق. وعندما استدار لينظر إليها فيما بعد رآها تأكل واحدة منه، لكنها أخفتها عندما لاحظته وكفت عن المضغ.

وقف الأب العجوز عند باب البيت ينظر إلى الشمس وهي تغيب، فلم يلاحظ قدوم المرأة. وبدلًا من أن يرحب بالمرأة قال: «هذه السحابة على يسار القمر تنبئ بالمطر.» ثم لمح «وانج لانج» وهو يتناول السلة من زوجته فصاح مرة أخرى:«هل صرفت المال كله ؟»

وضع «وانج لانج» السلة على المائدة وقال: «سيأتينا ضيوف الليلة. وحمل الصندوق إلى غرفة نومه، ثم أخذ السلة إلى المطبخ وتبعته زوجته. قال لها:«هذا لحم وهذا سمك. نريد طعامًا لسبعة أشخاص. هل تجيدين إعداد الطعام؟»

ردت المرأة بصوتها الجلي: «كنت أعمل بالمطبخ طوال فترة وجودي في بيت عائلة «هوانج» وكان اللحم يقدم في كل وجبة.»

● **العرس:**

أومأ «وانج لانج» برأسه وتركها، ولم يرها مرة أخرى إلا عندما حضر الضيوف. جاء عمه وابن عمه وفلاحان من القرية وجاره «شينج» وهو رجل قصير وهادئ لا يتحدث إلا إذا كان مضطرًا لذلك. وبعد أن

جلس الجميع في صحن البيت، ذهب «وانج لانج» إلى المطبخ ليطلب من زوجته أن تقدم الطعام. وفرح عندما قالت له: «سأناولك الأطباق وتضعها أنت على المائدة، لا أحب أن أظهر أمام الرجال.»

شعر «وانج لانج» بفخر كبير لأن امرأته لم تخجل من الظهور أمامه، لكنها لا تحب الظهور أمام الرجال الآخرين. أخذ أطباق الطعام ووضعها على المائدة وطلب من ضيوفه أن يأكلوا، فأكلوا بشهية وامتدحوا الطعام، لكن «وانج لانج» كرر عدة مرات: «ليس جيدًا.. لم تُحسن إعداده.»

لكنه كان فخورًا من داخله لأن زوجته قد أعدت الأطباق بمهارة وتعددت نكهات اللحم في أطباق لم يتذوق مثلها من قبل.

وفي المساء وبعد أن مكث معه الضيوف طويلًا، وانتهى الجميع من نكاتهم وحديثهم ودع «وانج لانج» آخر ضيوفه، ودخل إلى المطبخ فوجد المرأة تنام على الأرض خلف الموقد بجانب الثور. أخذها من يدها واصطحبها معه إلى غرفة النوم. أشعل شمعة حمراء ووضعها على المنضدة. تقدمت المرأة ودارت حول الفراش لتعده للنوم.

2 حياة جديدة

في صباح اليوم التالي استلقى وانج لانج على فراشه وهو يراقب امرأته. قطع صوت سعال أبيه هدوء الفجر، فقال لها: «خذي وعاء من الماء الساخن إلى أبي ... من أجل رئتيه.»

قالت: «هل أضع بعض أوراق الشاي في الماء.»

اضطرب وانج لانج من هذا السؤال. كان يود أن يرد قائلًا: «بالتأكيد ... لابد من وضع بعض أوراق الشاي في الماء ... هل تظنين أننا شحاذون ؟» كان يود أن تعرف المرأة أنهم يشربون الشاي دائمًا. لكنه كان يعلم أن أبيه سينزعج لو قدمت له الشاي في أول يوم لها في البيت بدلًا من الماء الساخن. فرد بلا أي اهتمام قائلًا: «شاي ... لا ... لا ... فهذا يتعب رئتيه.»

كانت المرأة قد دخلت إلى المطبخ وأشعلت النار وسخنت الماء ووانج لانج لا يزال في فراشه. خطر على باله فجأة هذا السؤال: «تُرى، هل أحبته هذه المرأة ؟»

فُتح باب الغرفة ودخلت المرأة في هدوء وهي تحمل وعاء بكلتا يديها، كان البخار يتصاعد من الوعاء. جلس «وانج لانج» على الفراش وأمسك الوعاء. كانت أوراق الشاي تطفو على سطح الماء. فنظر إليها بسرعة. خافت المرأة وقالت بتعجل: «لم أضع أي شاي للرجل العجوز... لكن بالنسبة لك، أنا ...».

لاحظ «وانج لانج» اضطراب زوجته وخوفها منه، فأجاب قبل أن تنهي كلامها: «أنا أحبه ... أنا أحب الشاي.» شرب الشاي وهو يصدر أصواتًا عالية من فرط السعادة. وقال في نفسه: «لابد أن زوجتي قد أحبتني.»

لا يتذكر وانج لانج أنه فعل أي شيء في الأشهر التالية سوى مشاهدة زوجته. إنه يعمل كما كان من قبل، لكن العمل أصبح رفاهية بالنسبة له، وذلك لأنه عندما يعود إلى البيت يجد الطعام معدًا وجاهزًا للأكل، والمائدة نظيفة وبلا أتربة وقد وضعت عليها الأواني والملاعق بشكل ظريف. والآن أيضًا، عندما يعود إلى البيت تكون الغرف نظيفة ومكان إشعال النار ممتلئ بالوقود الجاف.

كانت زوجته تمشي في الشوارع الريفية القريبة من المنزل وتعود وقت الظهر ومعها أعشاب وأوراق نباتات كافية للطبخ.

وبعد الظهر كانت الزوجة تتناول مجرفة وسلة وتذهب إلى الطريق الرئيسي المؤدي إلى المدينة، وتجمع روث الثيران والحمير والجياد. كانت تأخذها معها إلى البيت لتسميد الحقل. فعلت كل ذلك دون أن تتكلم عنه ودون أن يُطلب منها.

تناولت الزوجة بعض ثيابها وأصلحتها. ثم تناولت ملاءات السرايير وغسلتها ونشرتها. ويومًا بعد يوم كانت تفعل شيئًا تلو الآخر، حتى أصبحت الغرف الثلاثة تبدو نظيفة كما لو كان يسكنها أغنياء. وقد تحسنت صحة الرجل العجوز وقل سعاله وأصبح يجلس في الشمس وهو شبه نائم وسعيد.

لكن هذه المرأة لم تتحدث أبدًا إلا عن ضروريات الحياة وباقتضاب.

وكانت أحيانًا تعمل في الحقول. وقد بدأ «وانج لانج» يفكر فيها. تُرى كيف كانت حياتها في الفترة التي عاشتها قبل أن يراها ؟ لكنه كان سرعان ما يشعر بالخجل من نفسه ومن فضوله. إنها مجرد امرأة على أي حال.

هذه المرأة التي كانت تعمل كأمة في قصر كبير منذ الفجر وحتى منتصف الليل أصبحت مسئولة عن ثلاث غرف ووجبتين فقط. وفي يوم من الأيام، وبينما كان «وانج لانج» يزرع حقل القمح فآلمه ظهره من شدة التعب، فلمح خيال زوجته على الأرض وهي قادمة تحمل فأسًا على كتفها.

قالت: «ليس لدي أي عمل في المنزل حتى يحل الليل.» قالت ذلك وأخذت تحرث معه الأرض بانتظام. وعندما غابت الشمس، رفع «وانج لانج» ظهره بحرص ونظر إلى زوجته. كان وجهها مغبرًا ومبللًا بالعرق. وكانت بشرتها بلون الأرض. قالت له: «أنا حامل.»

تسمر «وانج لانج» ورقص قلبه من الفرح، فأخذ الفأس من يدها وقال:«دعك من هذا الآن ... لقد انتهى العمل اليوم، لنبلغ الرجل العجوز.»

سارا معًا إلى المنزل وهي خلفه بست خطوات كما هو متبع عادة مع النساء. كان الرجل العجوز يقف عند الباب، وهو يشعر بالجوع والرغبة في تناول طعام المساء. وكان قد فقد صبره فصاح: «لقد كبرت في السن ولا أستطيع أن أنتظر الطعام كل هذا الوقت.» ولكن عندما أخبره «وانج لانج» عما قالته زوجته ضحك وعلا صوته وقال لزوجة ابنه: «اقترب وقت الحصاد.»

3 أول طفل

عندما اقترب وقت ميلاد الطفل قال «وانج لانج» لزوجته: «لابد من وجود من يساعدك وقت الولادة ... امرأة.»

لكنها هزت رأسها بالنفي. كانت ترفع الأطباق بعد تناول طعام العشاء. كان الرجل العجوز قد أوى إلى فراشه، وكان الزوجين بمفردهما تلك الليلة.

قال «وانج لانج» متسائلًا: «بدون وجود امرأة ؟ كانت أمي تحضر امرأة من القرية. ألا توجد أمة كبيرة في السن في البيت الكبير يمكن أن تأتي.»

كانت أول مرة يذكر البيت الذي كانت تعمل به، فاستدارت له، فرآها كما لم يرها من قبل. كان وجهها ينضح بالغضب الواضح، وصاحت في وجهه: «لا أريد أي أحد من ذلك البيت.»

أنزل الغليون الذي كان يملأه بالتبغ وحملق فيها. وقال مندهشًا: «هذا جيد». لكنها لم ترد فواصل كلامه: «نحن رجلان ولا نعرف أي شيء في هذه الأمور... يمكن أن يأتي أحد من البيت الكبير ... «

نظرت إليه وبعد أن مرت لحظات قالت له: «عندما أعود إلى البيت الكبير سأعود بابني على ذراعي. سيكون مرتديًا سترة حمراء وسروالًا أحمر مشجرًا وقبعة عليها رسوم جميلة من الأمام. وسأرتدي أنا حذاء

جديدًا ورداء أسود من الساتان، وسأذهب إلى المطبخ الذي قضيت فيه جزءًا من عمري وكذلك إلى الصالة الكبرى حيث تجلس السيدة العجوز، سأجعلهم جميعًا يروني ويرون طفلي.» ثم واصلت عملها دون كلام.

لم يكن «وانج لانج» قد استمع إلى زوجته في حديث طويل مثل هذا من قبل. إنه مندهش جدًا ! كان يعتقد أنها قليلة التفكير في الطفل.

أخيرًا قال: «أعتقد أنك بحاجة إلى بعض المال.»

قالت بخوف: «إذا أعطيتني ثلاث قطع من الفضة ... سيكون ذلك كافيًا جدًا. أنا أجريت حسابات دقيقة، ولن أنفق أي بنس دون حاجة لذلك.»

تحسس «وانج لانج» جيبه. كان قد باع حملًا ونصف من نبات السمار قبل يوم واحد، بعد أن اقتلعه من أطراف البركة القريبة من الحقل الغربي. وضع ثلاثة دولارات من الفضة على المنضدة. ثم عاد وبعد قليل من التردد أضاف دولارًا رابعًا.

قال وهو يشعل غليونه: «من الأفضل أن تأخذي هذا أيضًا ... فقد تحتاجين إلى أن يكون رداء الطفل من الحرير... فهو أول طفل على أي حال.»

لم تأخذ زوجته المال فورًا، ولكنها وقفت تنظر إليه، ثم قالت وهي تهمس: «أول مرة تمس يدي نقودًا فضية.»

أخذت المال فجأة وأسرعت إلى غرفة النوم.

جلس «وانج لانج» وهو يدخن غليونه ويفكر في منظر القطع الفضية وهي موضوعة على المنضدة. في كل مرة كانت يده تمتد لتخرج أموالًا

فضية ليعطيها لأي فرد كان يشعر أنه يعطيه جزءًا من حياته. ولكن هذه المرة لم يكن هناك أي عناء في هذا العطاء. إنه الآن يتخيل المال وقد تحول إلى ملابس على جسد طفله المرتقب. ثم نظر إلى زوجته التي تعمل بالبيت وتتحرك هنا وهناك دون أن تتحدث، إنها أول من سيري الطفل في هذه الملابس التي يحلم بها.

● **الـولادة:**

لا تريد الزوجة أن يكون معها أحد عندما يحين موعد الولادة. وجاء موعد الولادة في ليلة ما ساعة غروب الشمس. كانت أولين تعمل مع زوجها في حصاد الحقل. كانا يجمعان معًا سنابل القمح. وكلما اقترب وقت المساء كانت تعمل ببطء، وكان زوجها ينظر إليها بقلق، توقفت ونظرت إلى السماء. ثم توقفت أولين عن العمل وقالت: «لقد حان الموعد ... سأذهب إلى البيت ... لا تدخل إلى الغرفة إلا عندما أناديك.»

وقف «وانج لانج» ينظر إليها وهي تمشي بين الحقول في طريقها إلى البيت؟ كان ظلام الخريف يتزايد بسرعة، ثم لحق بها إلى البيت.

عندما عاد «وانج لانج» إلى البيت وجد طعام العشاء ساخنًا على المائدة ووجد أبوه يتناول الطعام. لقد أعدت الطعام أولًا. اقترب من باب غرفتهما ونادى عليها، كان يتوقع أن ترد عليه. لكنها لم ترد.

رفع العجوز رأسه وقال: «تعال لتأكل قبل أن يبرد الطعام ... لا تنزعج فالأمر سيستغرق وقتًا طويلًا.» ثم قال كما لو كان قد أدرك الأمر لأول مرة: «في مثل هذا الوقت غدًا سأصبح جدًا لطفل ذكر.» ثم جلس هادئًا يضحك لفترة طويلة.

لكن «وانج لانج» وقف ينصت بجوار باب غرفته. وعندما أوشك على

أن يفقد صبره ويندفع إلى داخل الغرفة، سمع صوت صرخة رفيعة تأتي من داخل الغرفة فنسي كل شيء.

صاح «وانج لانج»: «هل هو ذكر؟» وقد نسي أن يطمئن أولًا على زوجته. ردت المرأة بصوت واهن: «ذكر.»

جلس «وانج لانج» إلى مائدة الطعام، كان الطعام باردًا ووالده العجوز يغط في نوم عميق وهو جالس. لم يصدق «وانج لانج» تلك السرعة التي تمت بها الولادة. هز كتف والده وقال له: «إنه ذكر ... أصبحت أنت جدًا وأنا أبًا.» بدأ الرجل العجوز في المشي وهو يضحك ثم دخل ينام. تناول «وانج لانج» صحن الأرز البارد وبدأ يأكل. وعندما شبع اقترب من الباب مرة أخرى فنادت زوجته عليه ليدخل. كانت هناك شمعة حمراء مشتعلة وكانت زوجته ترقد وهي مغطاة بعناية على الفراش وبجوارها ابنه ملفوف في أحد سراويله القديمة كما جرت العادة.

اقترب منهما فتوقف الكلام في فمه للحظات. انحنى على الطفل ونظر إليه. كان الطفل قد توقف عن البكاء وأغمض عينيه. نظر إلى زوجته ونظرت إليه. كان قلبه يخفق من شدة حبه لهما. فقال وهو لا يدري ماذا يمكن أن يقول: «غدًا سأذهب إلى المدينة وأشتري رطلًا من السكر الأحمر وأذيبه في ماء لتشربيه. يجب علينا أن نشتري كمية كبيرة من البيض ونصبغه باللون الأحمر لأهالي القرية. سيعرف الجميع أن عندي ولد.»

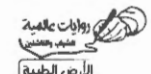

4 سعادة واستقرار

في صباح اليوم التالي نهضت الزوجة كالمعتاد وأعدت لهم الطعام، لكنها لم تذهب لحصاد الحقل مع «وانج لانج»، فعمل بمفرده حتى ما بعد الظهر. ثم لبس رداءه الأزرق وتوجه إلى المدينة. ذهب إلى السوق واشترى خمسين بيضة، كما اشترى ورقة حمراء ليغليها مع البيض في الماء. ثم ذهب إلى محل الحلويات واشترى ما يزيد قليلًا عن رطل من السكر الأحمر، وشاهد البائع وهو يلف شريطًا أحمر حول كيس السكر وهو يبتسم وقال: « لعل هذا لأم وضعت مولودًا حديثًا.» فرد «وانج لانج» بفخر: «أول مولود لها ... ذكر.»

رد الرجل: «من حسن الحظ» . شعر «وانج لانج» أنه لا يوجد من هو أسعد منه. وبسرعة شديدة وقبل أن يفكر أي أحد في ذلك كانت زوجته بجواره في الحقل. انتهت أيام الحصاد وخُزنت الحبوب وأعدت الحقول لتزرع بالقمح مرة أخرى في الشتاء.

إن «أولين» تعمل طوال اليوم، فهي تضع الطفل على الأرض وهو نائم وملفوف في بعض الملابس.

جاء الشتاء وكانوا قد استعدوا له جيدًا. فقد كانت هناك زلع ضخمة مصنوعة من البردي ومملوءة بالقمح والأرز. غالب هذه الحبوب سيباع عندما تتساقط الثلوج أو عند بداية العام عندما يكون أهل المدينة مستعدون لدفع مبالغ مناسبة مقابل الطعام.

● **مقارنة مع أسرة العـم:**

تذكر «وانج لانج» أن عمه كان دائمًا يبيع ما لديه من حبوب حتى قبل أن تنضج. وأحيانًا كان يبيعها وهي لا تزال على أعوادها في الحقول حتى لا يكلف نفسه عناء الحصاد. وكانت زوجة عمه حمقاء وكسولة وسمينة. كانت تطالبه دائمًا بشراء الحلوى والأحذية من المدينة. أما زوجة «وانج لانج» فهي تصنع أحذيتهم بنفسها.

كان لديهم أيضًا بالبيت فخذ من اللحم اشتراها «وانج لانج» من جاره «شينج». كانت الفخذ كبيرة وقد ملحتها «أولين» وعلقتها حتى تجف.

كانوا يعيشون في هذا البيت وسط هذا الكم الكبير من المخزون عندما بدأت رياح الشتاء من الصحراء وهي رياح حادة ولاسعة. استطاع الطفل أن يجلس بمفرده بسرعة ملحوظة. وكان الجميع يحسدون «وانج لانج» على طفله، فوجهه كبير ومستدير وعظام وجنته مرتفعة مثل أمه.

● **هطول المطر:**

كان «وانج لانج» ينتظر المطر بشغف، فهذه الرياح الجافة لن تجعل البذور الملقاة في تربة الحقول تنمو. وفجأة بدأت الأمطار في يوم ذي غيوم رمادية، فجلس الجميع في البيت وهم يراقبون الأمطار وهي تسقط على الحقول. كان الطفل مندهشًا وهو يفرد يده محاولًا الإمساك بقطرات المطر الفضية وهي تتساقط، كان يضحك والجميع يضحكون معه.

وفي الحقول، نما القمح وظهرت عيدانه الرطبة في الأرض. وهنا

حان وقت تبادل الزيارات. حيث يشعر الفلاحون بأن المطر يؤدي العمل نيابة عنهم في الحقول. فكانوا يتجمعون في البيوت ويشربون الشاي.

لكن «وانج لانج» وزوجته لم يتبادلا الزيارات، فلم يكن هناك بيت دافئ وممتلئ بالمحاصيل المخزونة كمنزلهم. وكان «وانج لانج» يشعر أنه لو وطد علاقاته مع الآخرين فسوف تبدأ سلسلة من الاستعارات، حيث اقترب رأس السنة ولا يوجد من يملك ما يكفي من مال للعيد والملابس الجديدة. فقضيا وقتهما في عمل مفيد، كانت زوجته تصلح الثياب وتخيطها، وكان هو يغزل الخيوط السميكة، ويصلح معدات الحقل أيضًا.

كان «وانج لانج» يصلح معدات الحقل وزوجته تعتني بأدوات المنزل. ربح «وانج لانج» في ذلك العام كثيرًا من المال. كان المال يزيد عن حاجته. لذلك كان يخاف عليه ويحتفظ به في حزامه ولا يخبر أي أحد عن مكانه سوى زوجته. كانا لا يعرفان أين يخبئا المال، لكن الزوجة حفرت ثقبًا في الحائط الداخلي لغرفتهما خلف الفراش. فكانت فكرة جيدة. وضع «وانج لانج» قطع الفضة في داخل الثقب ثم سدته أولين مرة أخرى. لم تترك أي أثر يوحي بوجود أي شيء. كان الزوجان سعيدين بما توفر لديهما من مال. كان ذلك يعطيهما إحساسًا بالغنى.

5 زيارة للبيت الكبير

اقترب العام الجديد وكانت الاستعدادات تجري في كل بيت. ذهب «وانج لانج» إلى محل بالمدينة لصنع الشموع واشترى أشرطة حمراء من الورق لصقها على أبواب بيته وعلى أطراف مزرعته حيث يعتقد أنها تجلب له الحظ. ذهب «وانج لانج» إلى المدينة مرة أخرى واشترى بعض الدهن والسكر الأبيض، أخذت زوجته السكر والدهن وخلطتهم معًا وصنعت كعكات للعام الجديد. كانت تسمى كعكة القمر وهي تماثل تمامًا الكعكة التي يأكلونها في بيت عائلة «هوانج» الكبيرة.

عندما وضعت الكعكات على الطاولة لتتخمر، كان «وانج لانج» يشعر بفخر كبير، حيث لا توجد أي امرأة أخرى تستطيع صنع ما قامت به زوجته- فقد صنعت كعكًا لا يأكله سوى الأغنياء في العيد.

قال: «من الصعب على أن أتناول تلك الكعكات.»

قالت المرأة ويداها لا تزالان معفرتين بالدقيق ولزجتين من الدهون: «إننا لسنا أغنياء بما فيه الكفاية حتى نأكل حلوى مصنوعة من السكر الأبيض والدهن. أنا أعدها لأخذها إلى السيدة العجوز في البيت الكبير. سآخذ الطفل معي في ثاني يوم من أيام العام الجديد وسآخذ الكعكات كهدية.»

أصبح كل شيء خاص بالعام الجديد أقل أهمية من تلك الزيارة. وعندما ارتدي «وانج لانج» معطفه القطني الأسود الجديد الذي صنعته

«أولين» له قال في نفسه: «سأرتدي هذا المعطف عندما أرافقهما حتى بوابة البيت الكبير.»

● **الزيارة:**

وفي اليوم الثاني من أيام العام الجديد، وهو اليوم الذي تتزاور فيه النساء، وكان الجميع قد أكل وشرب كل ما يحلو له في الليلة السابقة، فاستيقظ الجميع منذ الصباح الباكر، وألبست المرأة الطفل معطفه الأحمر والحذاء الذي صنعته له ووضعته على الفراش. ثم ارتدى «وانج لانج» ملابسه بسرعة بينما كانت زوجته تمشط شعرها الأسود الطويل وتربطه برباط مطلي بالفضة اشتراه لها وارتدت معطفها الأسود الجديد. ثم حمل هو الطفل وحملت هي الكعكات في السلة وانطلقا في طريق عبر الحقول. تلقى «وانج لانج» مكافأته عند بوابة بيت هوانج عندما جاء حارس البوابة وفتح عينيه جيدًا وصاح: «أنت وانج الفلاح، هذه المرة أنتم ثلاثة بدلًا من واحد ! أنت سعيد الحظ جدًا هذا العام، هلا جلست في غرفتي الحقيرة ريثما أعلن عن وصول زوجتك والطفل بالداخل.»

بدا الوقت طويلًا وهو يمر على «وانج لانج» أثناء الانتظار وقبل أن يعود الحارس ومعه الزوجة والطفل. كانت الزوجة تنظر نظرة توحي بالرضا، فقد «وانج لانج» صبره فقد كان يريد أن يعرف ما حدث.

قال «وانج لانج»: «أكل شيء على ما يرام وهو يهرول مع «أولين» فاقتربت منه قليلًا وهمست: «أعتقد – إن سُئلت عن حالهم– إنهم يمرون بضائقة هذا العام.»

قال «وانج لانج»: «ماذا تقصدين ؟»

قالت: «السيدة الكبيرة ترتدي نفس الرداء الذي كانت ترتديه العام

الماضي. لم يحدث ذلك من قبل. كما أن الإماء لا يرتدين ملابس جديدة. وبالنسبة لطفلنا، فهو أجمل وأفضل ملبسًا من أي طفل.»

تسللت الابتسامة ببطء إلى وجهها وهي تقول ذلك وضحك «وانج لانج» بصوت مرتفع. ثم قال لزوجته: «هل علمت لماذا أصبحوا فقراء.»

ردت: «قال لي الطباخ الذي كنت أعمل معه أن خمسة من الأبناء كانوا ينفقون المال بطيش شديد في أماكن بعيدة والابنة الثالثة على وشك الزواج في الربيع ولابد من إعداد أفضل أثاث لها. لاشك أنهم قد أصبحوا فقراء. السيدة الكبيرة نفسها قالت لي أنها تريد بيع جزء من الأرض جنوبي المنزل، وهي خارج أسوار المدينة، وقد اعتادوا زراعتها بالأرز».

● **شراء الأرض:**

كرر «وانج لانج»: «يبيعون الأرض.» ثم استدار إلى زوجته وصاح: «لماذا لا أفكر في ذلك، سوف نشتري الأرض.» حملقا في بعضهما، كان ينظر إليها بسعادة، وكانت تنظر إليه بتعجب شديد.

صاح بصوت مرتفع: «سأشتري الأرض من بيت هوانج الكبير!» قالت: «إنها بعيدة جدًا ... سنقضي نصف النهار في السير حتى نصلها.» لكنه كرر: «سأشتريها.» توقفت المرأة فجأة عن المعارضة وقالت: «فلنشتريها. فالأرض التي تزرع أرزًا جيدة على أية حال هي أيضًا قريبة من مجرى الماء. أي أن وصول الماء إليها مضمون طوال العام.»

ظهرت الابتسامة البطيئة مرة أخرى على وجهها، ثم قالت بعد وقت طويل: «في العام الماضي كنت أمة في ذلك البيت.» ثم سارًا معًا صامتين تسيطر عليهما الفكرة.

6 أرض جديدة وطفل ثان

غيرت قطعة الأرض التي اشتراها «وانج لانج» حياته بشدة. فذهب ليراها في يوم عاصف كانت السماء فيه ملبدة السحب من الشهر الثاني للعام الجديد. ولم يكن أحد يعلم بأنها ملكه حتى ذلك الوقت، وقد خرج ليراها بمفرده، إنها قطعة أرض طويلة ومربعة ذات طمي أسود وهي تمتد بجانب مجرى الماء الذي يحيط بسور المدينة. نظر إلى الأرض وقال في نفسه: «هذه الأرض لم تعد تعني أي شيء بالنسبة لمن يقيمون في البيت الكبير، لكنها تعني الكثير بالنسبة لي.»

جاء الربيع برياح عنيفة محملة بالأمطار، فأصبحت أيام التعطل عن العمل في الشتاء بالنسبة لـ «وانج لانج» أيام كد وعناء في أرضه الجديدة دون أي أمل في النجاح. كان العجوز يرعى شئون الطفل وكانت الزوجة تعمل مع زوجها من الفجر إلى مغيب الشمس. وعندما علم أنها ستلد طفلًا آخر قريبًا، كان أول ما فكر فيه هو أنها لن تستطيع العمل أيام الحصاد.

• ولادة دون عون أو مساعدة للمرة الثانية:

لم يتبادلا أي حديث عن الطفل الثاني بعد ذلك حتى جاء يوم في فصل الخريف، حيث ألقت مجرفتها ذات صباح وعادت إلى البيت. لم يذهب إلى البيت ليتناول وجبة الغداء، وذلك لأن السماء كانت ملبدة بالغيوم وكان عليه أن يحصد الأرز الناضج ويجمعه في أكوام. وفيما بعد وقبل غروب الشمس عادت أولين إلى الحقل لتعمل بجوار زوجها.

قال لها دون أن يتوقف عن العمل: «أهو ولد أم بنت ؟».

ردت بهدوء: «ولد ثان.» لم يتبادلا أي حديث آخر وقد كان سعيدًا حيث استطاعا معًا من إنهاء العمل وعادا إلى البيت.

• مشاعر خفية:

بعد أن تناول وجبة، ذهب «وانج لانج» لينظر إلى ابنه الثاني. وكانت «أولين» قد رقدت في الفراش بعد أن أعدت الوجبة، وكان الطفل يرقد بجوارها. نظر «وانج لانج» إليه ثم عاد إلى صحن البيت وهو مسرور ويقول في نفسه «هذه المرأة وجه خير، فهو يرزق بالذكور كل عام.» صاح في والده: «الآن أيها العجوز جاءك حفيد آخر وعلينا أن نترك الولد الأكبر معك في فراشك.» كان الرجل العجوز سعيدًا. كان يتمنى طويلًا أن ينام معه هذا الطفل في فراشه ليدفئه، لكن كان على الطفل ألا يترك أمه. والآن، ذهب الطفل الصغير وخطواته لا تزال غير ثابتة تجاه أمه وحملق في الطفل الصغير وهو يكاد يفهم أن طفلًا آخر قد حل محله. وبالتالي وافق على أن يكون في فراش جده.

• رزق وفير:

ومرة أخرى جاء الحصاد وفيرًا، وجمع «وانج لانج» الفضة نظير بيع ما أنتج ومرة أخرى أخفاه في الحائط. كما أصبح الجميع يعرفون أن «وانج لانج» يملك الأرض الجديدة.

7 بدأت المشكلات

بدأ عم «وانج لانج» يمثل له مشكلة كان يخشاها. فلطالما كان «وانج لانج» وأبيه فقيرين وكان عمه يجد قوته هو وأبناؤه السبعة وزوجته. ولكنهم عندما يجدون قوتهم لا يعملون. فقد كانت تلك صفة قبيحة، فبينما كبرت بناته، إلا أنهن كن لا يزلن يجرين في شوارع القرية ويتحدثن مع الرجال. غضب «وانج لانج» عندما قابل إحدى بنات عمه ذات يوم لدرجة أنه تجرأ وذهب إلى زوجة عمه وقال: «من يمكنه أن يتزوج فتاة مثل بنت عمي ؟»

لم تكن زوجة عمه تملك ما هو أنشط من لسانها، فأطلقته على «وانج لانج». قالت: «نعم، ومن ينفق على الزفاف. هذا الكلام يمكن أن يقال لمن عندهم أراض أكثر مما يحتاجون، ولا يعرفون ماذا يفعلون بها، لكن عمك رجل تعيس.»

انفجرت باكية وسالت دموعها بسهولة، فاندفعت السيدات من البيوت المجاورة خارج منازلهن ليرين ويسمعن. وقف «وانج لانج» وأكمل ما يريد أن يقول: «بغض النظر عن ذلك كله، ليس علي أن أقدم النصيحة لعمي، إلا أنني أقول إنه من الأفضل أن تتزوج الفتاة وهي لا تزال صغيرة، وألا يسمح لها أن تتجول في الشوارع.» وبعد أن تكلم بصراحة شديدة عاد إلى بيته وترك زوجة عمه تصرخ.

● **العم يبدأ الابتزاز:**

جاء عمه في اليوم التالي إليه في الحقل حيث كان يعمل. لم تكن «أولين» هناك، وذلك لأنها كانت على وشك الولادة الثالثة، وهذه المرة لم تكن على ما يرام. لذلك كان «وانج لانج» يعمل بمفرده.

جاء عمه إلى حيث يقف، ووقف صامتًا، بينما كان «وانج لانج» يحرث الأرض في مكان ضيق بجوار حقل كبير من الفول له. وأخيرًا نطق «وانج لانج» دون أن يرفع بصره.

قال: «عذرا يا عمي، فأنا لم أتوقف عن العمل. لابد أنك قد انتهيت من العمل في حقل الفول الخاص بك. أنا بطيء جدًا –فلاح فقير– لا أنتهي أبدًا من عملي في موعده حتى أستريح.»

فهم العم تمامًا ما يعنيه «وانج لانج» لكنه أجاب: «أنا رجل تعيس الحظ. هذا العام نبتت بذرة واحدة فقط من بين كل عشرين بذرة ألقيناها في الأرض. علينا هذا العام أن نشتري الفول. فإذا كنا سنأكله، فلن يكفي.» ثم تنهد بعمق. تماسك «وانج لانج». فهو يعلم أن عمه جاء يطلب منه شيئًا. وأخيرًا بدأ عمه الكلام مرة أخرى. فقال: «قال لي من بالبيت أنك مهتم بأمر ابنتي التافهة. وأنت على حق. لابد أن تتزوج. إذا كنت أنا أيضًا غنيًا مثلك كنت أقبل على اقتسام ما أملك معك، وكنت سأزوج بناتك من رجال طيبين.»

ألقى «وانج لانج» الفأس وصاح فجأة وهو يحملق في عمه: «إذا كنت أملك حفنة من الفضة، فذلك لأنني أعمل، وزوجتي أيضًا تعمل، إننا لا نفعل مثلما يفعل بعض الناس، فنجلس عاطلين أو نثرثر بينما تنمو الأعشاب الضارة في حقولنا أو ينام أطفالنا بلا عشاء.»

صعد الدم إلى وجه عمه الأصفر، فاندفع إلى ابن أخيه وصفعه على وجنتيه. وصاح: «هذا هو عقابك، لأنك تتكلم هكذا مع من هو في مثل سن والدك.» وقف «وانج لانج» وهو صامت وغاضب، كان يدرك خطأه لكنه غاضب من عمه بشده.

واصل العم كلامه صائحًا: «سأقول كلامك هذا لكل أهل القرية... سأخبر أهل القرية ... سأخبر أهل القرية.» ظل يكررها إلى أن قال «وانج لانج» رغمًا عنه: «ماذا تريدني أن أفعل؟»

تغير عمه فورًا فابتسم ووضع يده على ذراع «وانج لانج» وقال برقة: «بعض قطع من الفضة تضعها في هذه اليد الفقيرة. لنقل عشرة أو حتى تسعة. وذلك حتى أتمكن من عمل ما يلزم مع الخاطبة من أجل ابنتي.»

التقط «وانج لانج» الفأس ثم ألقاه مرة أخرى، وقال باختصار شديد: «تعال إلى البيت، فأنا لا أحمل الفضة معي مثل الأمراء.» وتوجه فورًا إلى البيت ومر في طريقه إلى البيت بطفليه وهما يلعبان عاريين خارج المنزل تحت أشعة الشمس. نادى العم على الطفلين وحضن كل منهما بذراعيه.

لكن «وانج لانج» لم يتوقف. ودخل إلى غرفة نومه فوجد زوجته والطفل الوليد، وكانت الغرفة مظلمة جدًا ولم يكن يستطيع رؤية أي شيء. كانت زوجته ترقد فقال لها بحدة: «ماذا الهل حان وقت الولادة أم لا؟»

ردت: «لقد انتهى الأمر. إنها بنت هذه المرة.» توقف «وانج لانج» وثبت في مكانه. شعر بشيء من الغضب، ففي بيت عمه أصبحت البنت مصدرًا للمشكلات، والآن أصبح في بيته هو بنت أيضًا.

اتجه إلى حيث يخبئ الفضة في الحائط وتحسس المكان حتى وصل

بيده إلى الموضع الخشن ليحفر فيه، حفر فوصلت يده إلى كومة الفضة، فعد منها تسع قطع.

قالت زوجته في الظلام: «لماذا تأخذ الفضة ؟»

● **قرض إجباري:**

رد باقتضاب: «مضطر لأن أقرض عمي .»

لم ترد زوجته في بداية الأمر لكنها قالت: «من الأفضل ألا تقول أقرض، فلا يوجد إقراض في هذا البيت. يوجد عطاء فقط.»

رد «وانج لانج» في حسرة قائلًا: «نعم .. أعرف ذلك.» وبمجرد أن خرج من الغرفة ألقى بالمال في يد عمه وعاد مسرعًا إلى الحقل.

● **فأل سيئ:**

لم يتخلص «وانج لانج» من غضبه قبل حلول المساء، فرفع رأسه وتذكر بيته وواجباته. فلم يفكر أثناء غضبه الشديد أنه لم ينظر إلى وجه الطفلة الجديدة.

وقف مستندًا على مجرفته وكان في شدة الحزن. لابد أن ينتظر محصولًا آخر قبل أن يستطيع شراء قطعة الأرض المجاورة للأرض التي اشتراها، وها هو فم جديد يضاف إلى من هم بالبيت. مر سرب من الغربان فوق رأسه وهي تنعق بصوت عال. ثم اختفت في الأشجار القريبة من بيته، فجرى وراءها يصيح ويلوح بالمجرفة. فظهرت مرة أخرى ببطء، ودارت عدة مرات فوق رأسه ثم اختفت في السماء التي كانت تظلم شيئًا فشيئًا.

تأوه بصوت عال وقال: «هذا فأل سيئ.»

8 الجفاف

يبدو أن الحظ عندما يعاند شخصًا قد لا يواتيه مرة أخرى بسهولة. حيث امتنعت الأمطار التي كانت تأتي في بداية الصيف، ويومًا وراء يوم كانت السماء صحو والشمس ساطعة.

جفت الحقول وتشققت، وجفت أعواد القمح القصيرة واصفرت قبل أن تنضج دون أن تثمر. وكذلك فإن زراعات الأرز الصغيرة التي أعدها «وانج لانج» اختفت لم تفلح كثيرًا رغم أن «وانج لانج» كان يحمل لها الماء في جرادل خشبية على عصا من البامبو على كتفيه بعد أن يأس تمامًا من حقول القمح.

وأخيرًا جف الماء في البركة وتناقص الماء من البئر بدرجة كبيرة لدرجة أن «أولين» قالت له: «إذا كان لابد للأطفال أن يشربوا ولابد للعجوز من ماء ساخن فلابد للزرع أن يجف.»

رد عليها «وانج لانج» في غضب وصل إلى حد التشنج قائلًا: «أجل، لكنهم جميعًا سيموتون من الجوع لو مات الزرع.»

لم تثمر سوى تلك القطعة من الأرض المجاورة للمجرى المائي، وذلك لأن وانج لانج كان يترك بقية حقوله ويقضي طوال اليوم في هذه الأرض. كان يأخذ الماء من المجرى ويصبه في التربة العطشى. وهذا العام –ولأول مرة– باع محصوله بمجرد أن حصده، وعندما شعر بقطع الفضة في يده قبض عليها بشدة وهرول إلى بيت «هوانج» وهناك

قابل وسيط الأراضي وقال فجأة: «معي هذا المال لأشتري به الأرض المجاورة لأرضي عند مجرى الماء.»

استلم الوسيط المال، وانتقل المال من يد إلى أخرى، ووقعَت الأوراق، فأصبحت الأرض ملكًا لـ «وانج لانج».

أصبح «وانج لانج» الآن يمتلك حقولًا كبيرة من الأرض الطيبة، وذلك لأن الحقل الجديد يعادل ضعف مساحة الحقل الأول. لكن الأهم بالنسبة له كانت تلك التربة القاتمة الغنية التي كانت ملكًا ذات يوم لعائلة أمير. هذه المرة لم يخبر أحدًا بما فعله.

مر شهر تلو الآخر ولم تسقط أية أمطار. وعندما اقترب الخريف، تجمعت بعض السحب الخفيفة في السماء، ولكن وقبل تجمع سحب أخرى، هبت الرياح من الشمال الغربي من الصحراء البعيدة فدفعت السحب بعيدًا.

• محصول متواضع وأزمة تتفاقم:

حصد «وانج لانج» من حقوله محصولًا صغيرًا من الفول، ومن حقل الذرة –الذي زرعه حين جفت حقول الأرز وأجدبت– جمع بعض القرون والحبوب المتناثرة هنا وهناك. فصل حبات الذرة في صحن البيت على الأرض وعندما أراد أن يحتفظ بالقوالح لتستخدم في إشعال النار فيما بعد قالت زوجته: «لا ... لا يجب أن نضيعها في الحرق. أتذكر أنني عندما كنت طفلة وجاءت أعوام كهذه، طحنا هذه القوالح وأكلناها. إنها أفضل من الحشائش.»

سكت الجميع عندما تكلمت، حتى الأطفال. كان الخوف يسودهم جميعًا في تلك الفترة ويخشون أن تخذلهم الأرض.

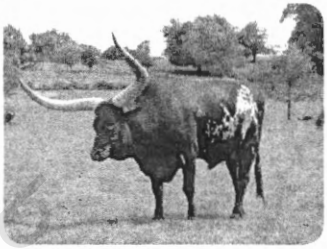

● **الثـــور:**

كان «وانج لانج» يعتني بثوره ويرعاه قدر المستطاع. وفي يوم لم يتبق بالبيت أي طعام سوى بعض الفول وقليل من مخزون الذرة. كان الثور يتضور جوعًا فقال والد «وانج لانج»: «سنأكل لحم الثور بعد ذلك.»

صرخ «وانج لانج» لأن الثور كان رفيقه في الحقول منذ أن كان شابًا، وقد عمل معه فيها طويلًا.

قال العجوز: «حسن ... إما حياتك أو حياة الحيوان، أما حياة الثور وإما حياة ابنك. يستطيع الإنسان أن يشترى ثورًا آخر بسهولة لكنه لا يستطيع أن يشتري حياته.»

لم يستطع «وانج لانج» أن يذبح الثور في ذلك اليوم. مر يوم .. ويوم آخر وصرخ الأطفال طلبًا للطعام. فرأى أنه لابد أن يحدث ذلك. فقال «وانج لانج»: «اذبحوه، لكني لا أستطيع أن أفعل ذلك بنفسي.»

خرجت «أولين» وذبحت الثور بقطع كبير في الرقبة، ولم يخرج «وانج لانج» حتى انتهى كل شيء، وكان اللحم مطبوخًا وعلى المائدة. لكنه عندما حاول أن يأكل من لحم ثوره، لم يستطع بلعه فشرب قليلًا من الحساء فقط. فقالت له «أولين»: «الثور ما هو إلا ثور، وهذا الثور كان كبيرًا في السن، كل من لحمه، فسيكون لدينا يومًا ثورًا أفضل منه.»

شعر «وانج لانج» ببعض الراحة فأكل قطعة لحم ثم أكل غيرها، وأكلوا جميعًا.

● **هجوم القرويين:**

في البداية كانت القرية غاضبة من «وانج لانج» لأنهم اعتقدوا أنه يحتفظ بالفضة ويخزن الطعام، كما أن قلوب القرويين حملت الحقد ضده كلما اشتد جوعهم. ثم همس عم «وانج لانج» قائلاً: «هناك من عنده طعام ...» فأخذ الرجال العصي وذهبوا في إحدى الليالي إلى بيت «وانج لانج» وقرعوا الباب بشدة. فتح «وانج لانج» الباب عندما سمع أصوات جيرانه، دفعوه من طريقهم وراحوا يفتشون في كل ركن من أركان البيت ليكتشفوا مخبأ طعامه. فلم يجدوا عنده سوى القليل من الفول الجاف وملء وعاء من الذرة الجافة، فصرخوا من خيبة الأمل واليأس، فبدأوا يأخذون ما لديه من مناضد وأسرة حيث كان يرقد أبوه العجوز الخائف المنتحب.

تقدمت «أولين» وصاحت فيهم: «لقد أخذتم كل ما نملك من طعام. لكن بيوتكم لا يزال فيها أسرة وطاولات، لم تبيعوا ما لديكم منها حتى الآن. فاتركوا لنا متاعنا. فنحن لا نملك ذرة أو فول أكثر منكم. ستصيبكم اللعنة إذا أخذتم المزيد. لنخرج جميعًا بحثًا عن الحشائش نأكلها ولحاء الأشجار لأطفالكم وأطفالنا.» شعر الرجال بالخجل من أنفسهم وهي تتحدث فخرجوا واحدًا تلو الآخر، فهم لم يصيروا أشرارًا إلا عندما اقتربوا من الموت جوعًا.

كان «وانج لانج» يقف في فناء البيت وهو مذعور. إلا أنه صاح فجأة وقال لنفسه: «لن يستطيعوا أخذ الأرض مني. لو كان عندي فضة لأخذوها مني. الأرض لا تزال ملكي. إنها لي.»

9 الهجـرة

قال «وانج لانج» لنفسه وهو يجلس عند باب البيت أنه لابد أن يفعل شيئًا. فهم لا يستطيعون البقاء حتى يموتوا جوعًا في هذا البيت الفارغ. كانت هناك رغبة قوية في الحياة تسري في جسده. وفي بعض الأوقات كان يشعر بنوع من الغضب لدرجة أنه كان يمل منظر السماء الزرقاء الصافية الخالية من السحب.

إنه من النادر أن يستيقظوا الآن، جميعهم بلا استثناء، فقد حل النوم من آن لآخر محل الطعام، ولكن لفترة محدودة فقط. لقد جففوا قوالح الذرة وأكلوها، وكان الناس في كل أنحاء القرية يأكلون أية حشائش يجدونها على التلال. لا يوجد حيوان واحد في أي مكان. كما لا يوجد هذه الأيام طفل يلعب في شوارع القرية. أقصى ما يمكن هو أن يجري ابنا «وانج لانج» إلى باب البيت ويجلسون في الشمس. بينما لم تستطع البنت أن تجلس بمفردها، رغم أنها كانت يجب أن تكون قادرة على ذلك منذ زمن، إلا أنها تظل لساعات طويلة تتلوها ساعات أطول ملفوفة في لحاف قديم. كان صراخها أول الأمر يملأ البيت ولكنها أصبحت هادئة، إنها تمص بوهن أي شيء يوضع في فمها.

هذه الرغبة في الحياة حازت إعجاب أبيها وحبه. فكان ينظر إليها ويهمس برفق: «أيتها البلهاء ... أيتها البلهاء الصغيرة.» وكانت دموعه تسيل عندما كانت تبتسم ابتسامة واهنة. وبعد ذلك اعتاد أن يضعها في معطفه الدافئ ويجلس وهو يطالع الحقول الجافة المستوية.

وبالنسبة للجد، فكانوا يعطونه أي شيء يمكن أن يؤكل، حتى وإن لم يأكل الأطفال. كان مبتهجًا أكثر منهم جميعًا. قال بصوته المرتعش في أحد الأيام: «مرت علينا أيامًا أسوأ من هذه الأيام ... مرت علينا أيامًا أسوأ.»

وفي أحد الأيام جاء جاره «سينج» وقد أصبح شبه خيال لمخلوق آدمي إلى باب بيته وقال له: «في المدينة يأكلون الكلاب وفي كل مكان يأكلون الجياد والطيور من كل نوع. وهنا، أكلنا كل الحيوانات التي كانت تحرث حقولنا وأكلنا الحشائش ولحاء الأشجار. فماذا بقي لنا من طعام؟»

هز «وانج لانج» رأسه في يأس. شعر فجأة بالخوف وقال: «سنترك هذا المكان.» ثم قالها بصوت عال: «سنذهب إلى الجنوب.»

نظر جاره إليه بروية وقال: «آه ... إنك صغير في السن ... أنا أكبر منك وزوجتي عجوز وليس لدينا سوى ابنة واحدة ويمكننا أن نموت هنا.»

قال «وانج لانج»: «أنت محظوظ أكثر مني، أنا مسئول عن أبي وثلاثة أفواه أخرى صغيرة.»

اعتقد «وانج لانج» أن ما قاله هو الصواب، فنادى على «أولين» التي كانت ترقد في الفراش يومًا بعد يوم دون أن تتحدث، فالآن لا يوجد طعام يوضع على الموقد كما لا يوجد وقود للموقد.

«تعالي يا امرأة ... سنذهب إلى الجنوب.»

اعتدلت «أولين» بوهن وهي على فراشها، وأمسكت بباب الغرفة وقالت: «حسنًا نفعل. حيث يمكننا على الأقل أن نموت أثناء المشي.»

وفي صباح اليوم التالي أشرقت الشمس كالمعتاد وكان «وانج لانج» يشعر بأنه يحلم، فلم يغادر بلدته من قبل، وهو أيضًا لم يسبق له التفكير

في ترك منزله. ليس معه أي مال، لكن المال لن يكون له أي نفع الآن، فلا يوجد أي طعام يمكن شراؤه.

● **محاولات لشراء الأرض:**

وبينما هو جالس عند باب البيت، كان هناك من هم قادمون عبر الحقول، إنهم رجال يتجهون نحوه. وعندما اقتربوا رأي أن أحدهم هو عمه وهناك ثلاثة رجال آخرون معه لا يعرفهم.

نظر «وانج لانج» إلى عمه. إن الرجل قد أصبح نحيفًا، لكنه لم ينحف بالقدر المناسب لما حدث. كان «وانج لانج» يشعر بغضب شديد نحو عمه بكل ما تبقى لديه من قوة.

غمغم قائلًا: «ماذا أكلت ... ماذا أكلت؟» رفع عمه يديه إلى السماء وصاح: «أكلت! ... إذا رأيت بيتي فستعرف أنه لم يعد به شيء يأكله حتى طائر صغير ولا حتى كسرة خبز.»

رد «وانج لانج»: «لكنك تأكل!»

رد عمه بحدة: «أنا لا أفكر في شيء سواك أنت ووالدك ... أخي. والآن سأثبت لك. لقد استعرت من هذين الرجلين الطيبين من المدينة بعض الطعام القليل على وعد مني بأنني سأساعدهم في شراء بعض الأرض المحيطة بقريتنا. وقد فكرت في أرضك الطيبة أولًا.»

لم يتحرك «وانج لانج» لكنه لاحظ أنهما من المدينة فعلًا. يبدوان كمن تناول طعامًا كما أن الدم لا يزال يجري في عروقهما. وفجأة شعر بكراهية نحوهما. نظر إليهما فجأة وقال: «لن أبيع أرضي.»

تقدم منه عمه، وفي تلك اللحظة جاء ابن «وانج لانج» الصغير وهو

يحبو على يديه وركبتيه. وذلك لأنه لم يعد يقوى على المشي فأصبح يحبو كما كان يفعل وهو طفل صغير.

صاح العم: «هل هذا ولدك ... الولد السمين الذي رأيته الصيف الماضي؟»

نظروا جميعًا للطفل، وبدأ «وانج لانج» بعد أن ظل طوال هذا الوقت العصيب متماسكًا يبكي بكاء صامتًا.

وأخيرًا همس «وانج لانج»: «كم تدفعون ؟»

تحدث أحد الرجلان القادمان من المدينة قائلًا: «أيها المسكين، سنعطيك سعرًا أفضل مما يمكنك أن تحصل عليه هذه الأيام. سنعطيك ...» وتوقف عن الكلام ثم واصل كلامه: «سنعطيك مائة بنس للفدان.»

ضحك «وانج لانج» بمرارة وصاح: «لماذا ... لقد دفعت عشرين ضعفًا عندما اشتريتها.»

قال الرجل الآخر القادم من المدينة: «لكنك لم تشترونها من أناس يموتون من الجوع.»

نظر «وانج لانج» إلى الرجال الثلاثة. لقد جاءوا وهم متأكدون من أنه سيوافق. فماذا يمكن لرجل أن يفعل لأطفاله الذين يتضورون جوعًا ووالده. تحول ضعفه إلى غضب لم يعرف مثله طوال حياته. فصاح بقوة في الرجال الثلاثة: «أنا لن أبيع أرضي أبدًا.» قالها وهو يصيح في وجوههم. وأضاف: «سنبقى هنا وسنموت هنا على تلك الأرض التي منحتنا الحياة.» كان ينتحب بقوة وقد قل غضبه بشدة وهو واقف يهتز وينتحب.

وفجأة جاءت أولين إلى باب البيت وتحدثت إليهم. قالت: «نحن

بالتأكيد لن نبيع الأرض، وإلا فعندما نعود من الجنوب فلن نجد ما نأكله. لكننا سنبيع المائدة والفراشين والأرائك الأربعة وحتى غلاية الموقد. لكننا لن نبيع المجرفة والمحراث وأداة جمع العشب، ولن نبيع الأرض.»

تهامس الرجلان، ثم استدار أحدهما وقال: «هذه أشياء لا تساوي شيئًا، إنها تصلح كوقود فقط، سندفع قطعتين من الفضة مقابل جميع الأغراض، وإما أن تقبلوا أو ترفضوا.»

استدار في احتقار وهو يتحدث لكن «أولين أجابت بهدوء: «هذا أقل من تكلفة فراش واحد فقط، لكن إذا كانت الفضة معك اعطيني إياها بسرعة وخذ الأغراض.»

أسقط الرجل قطع الفضة في يدها الممتدة ودخل الرجال الثلاثة إلى البيت، وتعاونوا في إخراج الأغراض منه. إلا أن عم «وانج لانج» وقف خارج الغرفة عندما دخلوا إلى غرفة العجوز. لم يرغب في أن يراه أخاه الأكبر.

وعندما انتهى كل شيء قالت «أولين» لزوجها: «لنذهب ونحن نملك قطعتي الفضة، علينا أن نذهب قبل أن نبيع أخشاب السقف، فلا نجد مأوى عندما نعود.» رد «وانج لانج» ببطء: «لنذهب ...»

لكنه نظر إلى الحقول وأشباح الرجال الذين غادروا بيته وغمغم: «لكني أملك الأرض ... أملك الأرض.»

10 سفر إلى الجنوب

لم يكن هناك أي شيء يمكن فعله سوى إغلاق باب البيت وتثبيته جيدًا. أما الملابس فهم يرتدونها. وضعت «أولين في يد كل طفل وعاء أرز فارغ وعودان من أعواد تناول الأرز[1]. وبدأوا في التحرك عبر الحقول ببطء يوحي بأنهم لن يصلوا أبدًا إلى جدار المدينة.

كان «وانج لانج» يتصبب عرقًا بسبب ضعفه الشديد رغم البرد والرياح الحادة. وصلوا إلى بوابة المدينة، بعد استراحات متعددة كل مسافة قصيرة. ومروا بجانب بوابات البيت الكبير لكنها كانت مغلقة. وعلى درجات السلم رقد بعض الرجال والنساء وهم ينظرون إلى البوابة المغلقة ويتضورون جوعًا. وعندما مر «وانج لانج» صاح أحدهم: «هؤلاء الأغنياء لا يزالون يملكون الأرز الذي يمكنهم أكله، كما أنهم يصنعون الخمر من الأرز الذي لا يأكلونه، بينما نموت نحن من الجوع.»

لم يجب «وانج لانج» واستمروا في السير نحو الجنوب صامتين.

عندما مروا بالمدينة ووصلوا إلى الناحية الجنوبية منها، كان الوقت يقترب من المساء، ووجدوا الكثير من الناس يتجهون نحو الجنوب، فسأل «وانج لانج» رجلًا قريبًا منه: «أين سيذهب هؤلاء ؟»

(1) يتناول الصينيون الأرز باستخدام عصاتين رفيعتين والأرز هو الأكلة الشعبية هناك بالطبع. (المترجم)

● **القطار ... وسيلة انتقال حديثة:**

قال الرجل: «إننا أناس نتضور جوعًا جئنا لنستقل القطار المتجه إلى الجنوب. إنه ينطلق من تلك المحطة وبه عربات بأجرة مخفضة تناسبنا قد يكلف أقل من قطعة فضة واحدة.»

قال «وانج لانج»: « قطار !» كان قد سمع فيما مضى عن القطار ذي العربات المربوطة ببعضها البعض ولا يجره رجال أو حيوانات، لكن هناك آلة جر تنفث نارًا وماءًا. استدار إلى امرأته وقال بتوجس: «هل نركب نحن أيضًا ذلك القطار؟»

نظرا إلى بعضهما بتعجب وخوف. حملت «أولين» الطفلة التي تدلت رأسها لدرجة أن «وانج لانج» نسي كل شيء وصاح: «هل ماتت البنت؟»

هزت «أولين رأسها وقالت: «لا ... لم تمت بعد. لكنها ستموت هذه الليلة ونموت جميعًا إذا لم ..... .»

قال «وانج لانج» بكل ما تبقى له من قوة: «تعالوا يا أولادي وساعدوا جدكم. سنذهب إلى الجنوب في القطار. سنجلس ونحن مسافرون إلى الجنوب.»

لم يكن أحد يعلم ما إذا كان من الممكن أن يتحركوا أم لا. وجاء القطار يهدر بصوت عال وله كشافان أماميان، وكان ينفث النيران إلى الخارج بصوت مسموع، فصرخ الجميع وجروا. وجدت عائلة «وانج لانج» نفسها تندفع من باب صغير بفعل الزحام إلى داخل عربة مظلمة. وفي صندوق يشبه الغرفة ظلوا لفترة وهذه الآلة تندفع بأسرع ما يمكن في الظلام وهي تحملهم بداخلها.

11 بداية بائسة في الجنوب

دفع «وانج لانج» قطعتي الفضة ليسافر مائة ميل في القطار، رد إليه الموظف المسئول عن التذاكر حفنة من البنسات النحاسية. اشترى «وانج لانج» ببعض البنسات أربع أرغفة صغيرة ووعاء من الأرز اللين للطفلة. كان هذا الطعام أكثر مما أكلوه في أي يوم مضى منذ أيام عديدة. وعندما أصبح الطعام في أفواههم كانوا قد فقدوا الرغبة في الأكل، الملاطفة الرقيقة فقط هي ما جعل الأطفال يبتلعون الطعام.

لكن «وانج لانج» لن يصرف كل البنسات النحاسية على الطعام فقد احتفظ بكل ما يملك ليشتري بعض الحُصر من أجل بناء مأوى لهم عندما يصلون إلى الجنوب. كان على متن القطار رجال ونساء يذهبون إلى المدن الغنية في الجنوب للعمل والاستجداء، وهكذا كانوا يحصلون على ما يشترون به الطعام. وبعدما اعتاد «وانج لانج» على رؤية الأرض وهي تجري على جانبي القطار، بدأ يسمع ما يقوله الناس.

استمع «وانج لانج» بشغف إلى أحدهم فقال: «أولًا يجب عليك أن تشتري ستة من الحصر. كل حصيرة ببنسين. ثم تثنيها معًا لتكوّن كوخًا، ثم تخرج لتتسول.»

لم يسبق لـ «وانج لانج» أن تسول من قبل أي شيء من أي إنسان وهو يكره فكرة التسول من أناس لا يعرفهم في الجنوب.

قال «وانج لانج» في نفسه وكررها: «لابد أن نتسول ؟»

رد الرجل: «نعم. ولكن لابد أن تأكل أولًا. هؤلاء الناس في الجنوب

لديهم الكثير من الأرز ويمكنك كل صباح أن تذهب إلى أحد المطابخ الشعبية فتأكل قدر ما تستطيع من عصيدة الأرز الأبيض في مقابل بنس واحد.»

هزت فكرة التسول «وانج لانج» فسأل الرجل فجأة: «ألا يوجد عمل يقوم به الرجال.»

قال الرجل: «عمل. (ثم بصق على الأرض) يمكنك أن تجر عربة الريكشا[1] الصفراء تخص أحد الرجال هناك وتتصبب عرقًا، ثم تتجمد عروقك بسبب الثلوج المتساقطة عليك مكونة معطفًا من الثلج وأنت واقف تنتظر.» ثم تلفظ ببعض السباب. فتوقف «وانج لانج» عن الحديث إليه بعد ذلك. وعندما وصل بهم القطار إلى المحطة الأخيرة في الجنوب، كان «وانج لانج» قد أعد خطة. فأسند الرجل العجوز والأطفال إلى جدار رمادي طويل لأحد البيوت، وذهب لشراء الحصر.

وجد محل الحصر في طرف المدينة، فدفع البنسات وحمل الحصر. وعندما عاد إلى المكان الذي ترك فيه أفراد أسرته، صرخ الأطفال عندما رأوه، ولاحظ أنهم كانوا مذعورين بشدة من هذا المكان الغريب. كان العجوز فقط هو من ينظر إلى ما حوله بسعادة ودهشة، فقال لـ «وانج لانج»: «هل لاحظت كم هم بدناء هؤلاء الجنوبيون، إنهم يأكلون اللحم كل يوم بلا شك.»

• بناء الكوخ:

لم ينظر أي ممن يمرون بالطريق إلى «وانج لانج» وأسرته، كان ينظر

(1) عربة صغيرة ذات عجلتين يجرها رجل. (المترجم)

حوله ليرى أنه يمكنه أن يضع كوخه. كانت هناك أكواخ أخرى مثبتة في الحائط المجاور. نظر «وانج لانج» إلى الأكواخ ثم بدأ في تشكيل الحصر بنفس الطريقة ليصنع كوخه، إلا أن «أولين» قالت فجأة: «أنا أستطيع أن أقيمه، أتذكر ذلك منذ طفولتي. وضعت الطفلة على الأرض وفردت الحصر هنا وهناك، وكونت منها سقفًا مستديرًا يصل إلى الأرض، وكان مرتفعًا بقدر كاف يمكن الرجل من الجلوس بداخله على ألا يلمس قمته، ثم وضعت قراميد كانت ملقاة بالطريق على أطرافه السفلية، وعندما اكتمل دخلوا فيه، ثم فرشت فيه الحصيرة المتبقية فأصبح لهم مأوى.

● حياة غريبة:

نظروا إلى بعضهم البعض وهم على تلك الحال، حيث يبدو مستحيلًا أنهم قبل يوم واحد كانوا في بيت يملكونه هو والأرض التي أصبحت على بُعد أميال عديدة الآن.

شعرت أسرة «وانج لانج» بوفرة الطعام في تلك الأرض، وسرعان ما اكتشفوا أن المطابخ كانت عند نهاية الشارع القريب من كوخهم، فقد كان الكثير من الناس يسيرون وهم يحملون أوعية فارغة. سار «وانج لانج» وأسرته مع هؤلاء ثم وصلوا أخيرًا إلى مبنيين كبيرين مصنوعين من الحصر، وقد تزاحم الجميع عند الفتحة الموجودة في نهاية المبنيين.

وفي الجزء الخلفي من كل مبنى توجد مواقد كبيرة تعلوها أوان بحجم البركة، وعند رفع الأغطية الخشبية الكبيرة يظهر الأرز الأبيض يغلي ويكركر. وعندما يشم الناس رائحة الأرز يتجمعون مسرعين. كان من يقفون عند الأواني يزأرون قائلين: «يوجد طعام يكفي الجميع، كل

واحد في دوره !» لكن ذلك لم يجد أمام اندفاع الجوعى من الرجال والنساء، كانوا يتقاتلون مثل البهائم إلى أن أكل الجميع.

عندما عادوا إلى الشارع مرة أخرى وقفوا يأكلون ما معهم من أرز، فأكل «وانج لانج» وشبع وتبقى بعض الأرز في صحنه، فقال في نفسه: «سآخذ هذا لآكله في المساء.» إلا أن أحد الرجال الذين يبدو عليهم أنهم حراس قال بحدة: «لا ... لا يمكنك أن تأخذ الطعام معك، لك ما أكلت فقط. وذلك لأن هناك من الناس من يأتي ويشترى هذا الأرز المخصص للفقراء ويطعمونه لحيواناتهم عندما يعودون إلى بيوتهم.»

استمع «وانج لانج» إلى هذا الكلام ثم صاح: «هل يوجد أناس بهذه الغلظة. ولكن من الذي يقدم هذا العطاء للفقراء، من هو؟»

أجاب الرجل: «إنهم أغنياء المدينة. إنهم يفعلون ذلك.»

قال «وانج لانج»: «إنه عمل صالح.» ثم عادوا إلى الكوخ الذي أقاموه فناموا حتى الصباح التالي. كانت المرة الأولى التي امتلأت فيها بطونهم بالطعام منذ بداية الصيف.

● **التسـول:**

كان من الضروري في الصباح التالي أن يتوفر مال جديد. نظر «وانـج لانج» إلى «أولين» بحيرة كما لو كان يسألها عما يفعل. أجابته «أولين» كما لو كانت قد اعتادت تلك الحياة. فقالت: «يمكنني أن أتسول أنا والأطفال، والعجوز أيضًا.» نادت على الولدين وقالت لهما: «فليأخذ كل واحد منكما وعاءه ويمسكه هكذا ويصيح قائلًا .... .

أخذت وعاءها الفارغ ومدته هي أيضًا وصاحت بطريقة تستحق

الشفقة: «أشفق علي يا سيدي الكريم، حسنة قليلة تدخلك الجنة، الق لي أقل مبلغ ممكن، عملة نحاسية، أريد أن أطعم الطفل الجائع.»

حملق الطفلان و«وانج لانج» فيها وهي تقول ذلك. أين تعلمت هذا النداء. ترى ما الذي لا يزال لا يعرفه عن هذه المرأة. ردت على نظرته قائلة: «هكذا كنت أنادي وأنا طفلة صغيرة ولذلك وجدت طعامي، ففي عام مجدب كهذا العام باعوني كأمة.»

استيقظ بعد ذلك الرجل العجوز وأعطوه وعاءً، وخرج الأربعة إلى الطريق ليتسولوا. بدأت المرأة في الصياح، كانت تهز وعاءها أمام كل من يمر. كان قليلون يلقون إليها بقطع عملات صغيرة على مضض.

● عمل شاق لوانج يانج:

أما بالنسبة لـ «وانج لانج» فقد انطلق في الشوارع حتى وصل إلى مكان يؤجرون فيه عربات الريكشا مقابل قطعة صغيرة من الفضة تدفع في المساء.

كان «وانج لانج» يستطيع المشي بالكاد وهو يجر تلك العربة خلف ظهره لأول مرة. ذهب إلى شارع جانبي ضيق ومشى جيئة وذهابًا. وبينما كان يحدث نفسه بأن التسول كان أفضل له، فُتح باب وناداه الرجل العجوز الذي خرج منه.

انطلق «وانج لانج» يعدو وهو يجر العربة ويفعل مثلما يفعل الآخرون غيره وهو لا يعرف المكان الذي طلب منه الرجل أن يوصله إليه. لكنه كان يسأل أثناء سيره عن المكان المطلوب ويحاول في نفس الوقت الجري بأسرع ما يمكن.

عندما وصل «وانج لانج» نزل الرجل من العربة، وألقى له قطعة صغيرة من الفضة وقال له: «أنا لا أدفع أكثر من ذلك أبدًا ولا فائدة من الشكوى.»

لم يكن «وانج لانج» ينوي أن يشتكي لأنه لم ير تلك العملة من قبل. وهو لا يعلم كم بنسًا تساوي. ذهب إلى محل قريب يبيع الأرز ويغير العملة، فأعطى صاحبه قطعة الفضة وأخذ ست وعشرون بنسًا بدلًا منها. كان «وانج لانج» مندهشًا من السهولة التي يكسب الناس بها المال في الجنوب. لكن أحد من يجرون الريكشا وقف أمامه وهو يعد النقود وقال له: «ست وعشرون بنسًا فقط ؟ كم المسافة التي سحبت فيها هذا الرجل بالريكشا. وعندما أخبره «وانج لانج» قال له الرجل: «لقد أعطاك نصف الأجرة التي تستحقها. كم كنت تطلب منه قبل أن تبدأ الرحلة ؟.

رد «وانج لانج»: «أنا لم أطلب شيئًا ... قال لي تعال، فجئت.»

صاح الرجل فيمن كانوا يقفون قريبًا: «تعالوا جميعًا لترو هذا الأحمق الريفي. فلتعلم يا أحمق أن من لا نجادلهم في الأجرة فقط هم الأجانب البيض، إنهم حمقى وينفقون المال ببذخ.» ضحك كل من استمع إلى هذا الكلام. لم يقل «وانج لانج» أي شيء. شعر بأنه حقير وجاهل وسط هذا الزحام من أهل المدينة.

قال «وانج لانج» في نفسه: «لا يهم سيكفي هذا المبلغ لإطعام أطفالي غدًا. ثم تذكر أن عليه أن يدفع إيجار الريكشا في المساء.

جاءه راكب آخر في الصباح، فتجادل معه هذه المرة حول الأجر واتفق عليه أولًا. وفي المساء ناداه راكبان آخران. لكنه عندما عد المال في المساء، وجد أنه يملك بنسًا واحدًا فقط إضافة إلى أجر العربة، فعاد إلى كوخه وهو يشعر بمرارة شديدة.

وعندما دخل الكوخ وجد أن «أولين» قد كسبت من التسول مبلغًا يقل عن خمس بنسات، وعندما أضافوا كل المبالغ التي جمعها الأولاد والجد، وجدوا المبلغ كافيًا لشراء الأرز في الصباح. لكن الولد الصغير كان متمسكًا بما تسول من نقود، ولم يستطيعوا أن يأخذوه منه إلا عندما أعطاه هو لهم مقابل الأرز الذي سيأكله.

لم يكسب الجد أي مال مطلقًا، فقد جلس على جانب الطريق طوال اليوم لكنه لم يتسول. لم يستطع أحد أن يلومه لأنه رجل كبير في السن.

12 أجانب في الجنوب

كان «وانـج لانـج» وزوجته وأطفاله كالأجانب في الجنوب. فمن يسيرون في الشوارع هم من أصحاب الشعر الأسود مثل «وانـج لانج» وأسرته، إلا أن من يسمع لغة هؤلاء الجنوبيين يمكنه أن يفهمها بصعوبة.

لم تعد الأكواخ المتراصة بجانب الأسوار جزءًا من المدينة، ولا جزءًا من الريف البعيد. وعندما شاهد «وانج لانج» شابًا يصيح في الناس قائلًا أن الصين بحاجة إلى ثورة ولابد لها من أن تثور ضد الأجانب المكروهين، خاف وابتعد، ظنًا منه أنه من الأجانب المقصودين بالقول وأن الشاب كان يتحدث عنه.

وفي أحد الأيام كان «وانج لانج» في شارع سوق الحرير يبحث عن راكب، فعلم أن هناك من يمكن وصفهم بالأجانب أكثر منه في هذه المدينة. فقد تصادف أن مر بجوار باب أحد المحلات، فخرج من المحل مخلوق غريب جدًا، لدرجة أنه لم يعرف إن كان هذا المخلوق رجلًا أم امرأة. كان طويلًا ويرتدي لباسًا طويلًا أسود مصنوعًا من قماش خشن وكان فراء حيوان يلتف حول عنقه. أشار إليه هذا الشخص وهو يمر وطلب منه بلهجة متعثرة أن يذهب إلى شارع الجسور. بدأ يجري بسرعة، ثم تحدث إلى أحد معارفه ممن يجذبون العربات قائلًا: «أنظر إليه، ما هذا الذي أسحبه ؟»

رد الرجل وهو يصيح: «امرأة أجنبية. سيدة أمريكية، لقد أصبحت غنيًا.»

لكن «وانـج لانـج» كان يجري بأسرع ما يمكن خوفًا من المخلوق الغريب الذي يجلس خلفه.

عندما نزلت السيدة، قالت بنفس اللهجة المتعثرة: «عليك ألا تجهد نفسك في الركض بشدة.» ثم وضعت في يده قطعتين من الفضة، أي ضعف الأجر المعتاد.

علم «وانـج لانـج» أن هذه المرأة أجنبية فعلًا، وأن هناك أناسًا آخرين من نوع آخر، فهم ذوو شعر فاتح وعيون ملونة، فليس جميع البشر ذوي شعر أسود وعيون سوداء مثله.

● **نعم متسولون، ولسنا لصوص:**

وذات ليلة عاد «وانـج لانج» متأخرًا، فوجد وعاء يغلي على النار منذ فترة وبه قطعة لحم. كانت تلك أول مرة يأكلون فيها لحمًا منذ أن ذبحوا الثور، فاندهش «وانج لانج» وقال لزوجته «أولين»: «لابد أنك قد تسولت من الأجانب اليوم.» فلم ترد. لكن طفله الصغير صاح في فخر: «أنا أخذت هذا اللحم. إنه لي. أخذته عندما نظر الجزار إلى الجهة الأخرى.»

أخذ «وانج لانج» اللحم من الوعاء وألقاه على الأرض قائلًا: «يمكن أن نكون متسولين، لكننا لسنا لصوصًا.»

تقدمت «أولين» وأخذت للحم وغسلته ووضعته في الوعاء مرة أخرى، وقالت بهدوء: «اللحم هو اللحم على أي حال.»

لم يجب «وانج لانج» لكنه قال في نفسه: «لابد أن نعود إلى الأرض.»

13 غربة وفقر مدقع

مرت الأيام يومًا بعد يوم في تلك المدينة الغنية، و«وانج لانج» يعيش في أحط درجات الفقر فيها. فبينما تغص المحلات بأصناف الطعام الشهي، ويرتدي الأغنياء الساتان والمخمل، لا يوجد أي طعام كاف يسد رمق من يعيشون في حي الأكواخ الذي يعيش فيه «وانج لانج» ولا ملابس تستر عظامهم. قابل الرجل العجوز و«أولين» الحياة التي يعيشونها برضا. لكن الصغار كانوا متبرمين. وعندما استمع «وانج لانج» ذات ليلة إلى حديث بينهم، علم لأول مرة عما يدور في الجانب الآخر من السور الذي يتكئ عليه كوخهم. وفي مساء أحد الأيام الأخيرة للشتاء، ظهرت لأول مرة بوادر تشير لمقدم الربيع من جديد. حيث هبت رياح لطيفة في منتصف الليل جعلت «وانج لانج» غير مرتاح وبداخله رغبة جامحة في العودة إلى الحقول.

قال «وانج لانج» لوالده: «في يوم كهذا، كان يجب أن نقلّب تربة الأرض ونزرع القمح.» قال أبوه: «نعم ... أعلم ما يدور بداخلك، لقد اضطررت لأن أفعل ما فعلناه هذا العام مرات ومرات طوال عمري.»

قال «وانج لانج»: «لكنك كنت دائمًا تعود يا أبي.»

رد الرجل العجوز ببساطة: «لأن هناك الأرض يا ولدي.»

إذن فهم أيضًا سيعودون، إن لم يكن هذا العام، فالعام القادم، وذلك حسبما يحدث «وانج لانج» نفسه. وأخيرًا قال لزوجته بغلظة: «لو عندي أي شيء أبيعه، لبعته وعدت إلى الأرض.»

● **فكرة بيع البنت:**

كانت «أولين» تغسل صحون الأرز ببعض الماء، فنظرت إليه من مكانها الذي تجلس فيه وقالت: «لا يوجد ما يمكن بيعه سوى البنت.»

لكن «وانـج لانـج» سعل بشدة وصاح بصوت عـال: «لا ... لن أبيع الطفلة.» ردت زوجته ببطء شديد: «ولكنهم باعوني ... باعوني لعائلة كبيرة حتى يستطيع والدي العودة إلى قريتهما.»

«ولذلك ستبيعين الطفلة ؟»

«إذا كان الأمر يتوقف علي أنا فقط، فأنا أقتلها قبل أن تباع، لكني أبيعها من أجلك، من أجل أن تعود أنت إلى الأرض.»

قال «وانـج لانـج»: «لن يحدث أبـدًا، حتى لو عشت كل ما تبقى من حياتي في هذه الغربة الموحشة.»

إلا أنه فكر في الأمر رغمًا عنه. نظر إلى الطفلة وهي مع جدها، كانت تبتسم عندما ينظر إليها. قال في نفسه: «كان من الممكن أن أفعل ذلك، لو لم تكن تبتسم لي بهذه الطريقة.»

ثم فكر في أرضه فصاح بتألم شديد: «ألن أراها مرة أخرى ! بعد كل هذا التعب في العمل والتسول، لا نجد سوى ما نأكله فقط.»

رد عليه صوت في الغسق قائلًا: «أنت لست وحدك. هناك مئات ومئات مثلك في هذه المدينة.» إن هذا الرجل القادم وهو يدخن غليونه المصنوع من نبات البامبو هو رب الأسرة التي تعيش في كوخ قريب من كوخ «وانج لانج». قال «وانج لانج» بمرارة: «وهل يستمر ذلك إلى الأبد.»

نفث الرجل دخان غليونه وقال: «لا ، ليس للأبد. هناك مخرج

من الأزمة، لو أن الأغنياء ازدادوا غنى، أما إذا ازداد الفقراء فقرًا، فهناك طرق أخرى. في الشتاء الماضي بعنا ابنتين. لقد احتفظت ببنت، وهي الكبرى. أما الأخرتان فكان بيعهما أفضل من قتلهما. وهذه إحدى طرق التصرف عندما يزداد الفقراء فقرًا. أما عندما يصبح الأغنياء أكثر غنى، هناك حل آخر، وأنا -إن لم أكن مخطئًا- أرى أن هذا الحل قريب.» وأشار إلى الجدار المجاور لهما وقال: «هل رأيت ما وراء الجدار؟» هز «وانج لانج» رأسه وهو يحملق.

● **جدار فاصل بين الفقر والغنى:**

أكمل الرجل كلامه: «لقد أخذت إحدى بناتي لأبيعها بالداخل ورأيت البيت. لن تصدق عندما أقول لك كيف يأتي المال إلى هذا البيت وكيف ينفق. حتى العبيد يرتدون الجواهر في آذانهم.»

استمع «وانج لانج» إلى الرجل وهو فاغر فاه، وفكر هل توجد مثل هذه الأشياء خلف الجدار!

قال الرجل: «هناك مخرج عندما يكون الأغنياء أكثر غنى.» وتظاهر بأنه لم يقل شيئًا، وقال: «سأذهب للعمل مرة أخرى.» وخرج في ظلام الليل، حيث كان يعمل ليلًا وينام نهارًا.

لم يستطع «وانج لانج» النوم من التفكير في الذهب والفضة والمجوهرات وفيمن يعيشون على الجانب الآخر من هذا الجدار، فقال في نفسه: «سيكون من الأفضل أن نبيع البنت إلى بيت غني مثل هذا، حتى تأكل جيدًا وترتدي الجواهر.» لكنه فكر في الأمر رغمًا عنه مرة أخرى فقال: «هل أبيع الطفلة من أجل أن نموت هناك من الجوع بدلًا من هنا؟ ليس لدينا حتى البذور التي يمكن أن نزرع بها الأرض.»

14 مشكلات الغربة

حل فصل الربيع على قرية الأكواخ الفقيرة. وفي كل يوم تتجمع عدة نساء وأطفال ذوو مظهر رث ويخرجون جميعًا من الأكواخ بحثًا عن طعام لهم. وكل يوم، كانت «أولين» والأطفال يخرجون مع هذه الجموع.

لكن على الرجال أن يعملوا، فعمل «وانج لانج» كما اعتاد من قبل. في الشتاء كانوا يعملون في صمت ثم يأكلون الطعام الذي يشتروه بكل ما يكسبونه في العمل أو يتسولونه دون كلام، ثم يغطون في نوم عميق.

ولكن ومع مقدم الربيع، وجد الحديث طريقه إلى ألسنتهم. كانوا يتحدثون، الرجال عادة يتحدثون عن المال، وعادة ما كانوا يتحدثون عما يمكن أن يفعلوه لو أن لديهم مال مثل المال الذي تملكه الأسرة الغنية في البيت الذي يجاور أكواخهم سوره.

كان «وانج لانج» يستمع إليهم، وكان يهتم بسماع حديثهم عما سيأكلون أو عن النوم، أو عن عدم العمل، مثل الرجل الثري الذي يعيش خلف السور. ثم صاح «وانج لانج» فجأة: «إذا كان معي ذهب وفضة، سأشتري بها أرضًا، أرضًا طيبة، أجني منها محاصيل جيدة.»

هنا نظر الجميع إليه باحتقار، إلا أن ذلك لم يجعل «وانج لانج» يغير رأيه، وزاد شوقه للأرض التي يملكها يومًا بعد يوم.

• توتر ونذر حرب:

كان «وانج لانج» يفكر في أرضه، ويحلم كل ليله بما يحدث له في

هذه المدينة الغريبة. فهناك على سبيل المثال الأوراق التي يوزعها الناس هنا وهناك، لقد أخذ من تلك الأوراق مرتين.

في المرة الأولى حمل الورقة إلى الكوخ ليلًا، وعرضها على أبيه، لكنهما لا يعرفان القراءة. وبعد عدة أيام، وبعد أن نسى الجميع هذه الورقة، أخذتها «أولين» ثم خيطتها في نعل فردة حذاء مع بعض الأوراق الأخرى لتجعل فردة الحذاء أكثر تماسكًا. لكن في المرة التالية أعطى شاب بملابس جميلة لـ«وانج لانج» ورقة عليها صورة لرجل ميت، لونه أصفر ونحيف يرتدي ملابس زرقاء رثة، ويقف أمامه رجل ضخم يمسك سكينًا طويلًا. نظر «وانج لانج» طويلًا إلى الصورة واشتاق إلى أن يعرف ما هو مكتوب تحتها. التفت إلى الرجل الذي بجانبه وقال: «هل تعرف حرفًا أو حرفين من هذه الكتابة يُمكنك من معرفة هذا الحدث المخيف.»

رد الرجل: «اهدأ واستمع إلى المعلم، فإنه سيخبرنا.»

لذلك استمع «وانج لانج»، فسمع ما لم يسمعه من قبل. صاح المعلم الشاب: «إن الرجل الميت هذا هو أنتم. وهذا الذي يقتلكم هو الغني.»

تعالى صياح المستمعون، إلا أن «وانج لانج» ابتعد وهو غير راض، ولم يأخذ الورق الذي كان الشاب يوزعه بعد ذلك إلا مضطرًا.. وعندما لاحظ أن «أولين» ليس لديها ورق كاف تصلح به النعال فكان يعطيها الورق عندما يعود إلى البيت.

أضيفت متاعب ذلك الشاب وأمثاله ممن ينتشرون بين المقيمين في الأكواخ إلى متاعب الأرق في فصل الربيع. وعلى الرغم من أن «وانج لانج» كان يراهم ويلاحظ ثورتهم، إلا أنه كان لا يريد أي شيء سوى أن يعود إلى أرضه.

● **عمل شاق بلا أجر:**

في هذه المدينة رأى «وانج لانج» شيئًا جديدًا لم يفهمه. فبينما كان يبحث عن راكب في أحد الأيام، رأي جنودًا مسلحين يقبضون على رجل. وبينما كان «وانج لانج» ينظر في دهشة، قُبض على اثنين آخرين.

لاحظ «وانج لانج» أن هؤلاء الرجال جهلة مثله، فلماذا يقبض عليهم. دفع «وانج لانج» عربته إلى شارع جانبي، ودخل في محل يبيع الماء الساخن واختبأ حتى ابتعد الجنود. ثم سأل عامل المحل –وكان كبيرًا في السن– فرد بلا مبالاة: «هناك حرب أخرى في مكان ما. وهؤلاء الجنود ذاهبون إلى الحرب، ويرغمون عمالًا أمثالك على حمل متاعهم وأسلحتهم.»

رد «وانج لانج» وهو يلهث: «وماذا بعد؟ «كم الأجرة ... كم يدفعون؟» لكن الرجل كان طاعنًا في السن فرد بلا مبالاة: «لا يدفعون أي أجر، فقط قطعتان من الخبز الجاف كل يوم، ويمكنك أن تعود إلى بيتك عندما يصلون إلى المكان المنشود، إن كانت قدماك قادرتين على حملك.»

قال «وانج لانج» وهو يشعر بالرعب: «وأسرة الرجل.»

رد الرجل: «هم لا يعرفون عن ذلك شيئًا ولا يهتمون به.» إلا أن الرجل كان عطوفًا حيث لاحظ أن الجنود قد عادوا يبحثون في الشوارع. فقال لـ «وانج لانج»: «انحني، لقد عادوا.» انحنى «وانج لانج» ومر الجنود في الشارع باتجاه الغرب. وعندما اختفت أصوات أحذيتهم، ركض «وانج لانج» وأخذ عربته، وعاد بها خالية إلى الكوخ.

وجد أن «أولين» قد عادت لتوها من الخارج لتطبخ قليلًا مما جمعته من الخضر، فحكى لها «وانج لانج» عما حدث، وكيف أنه نجا بصعوبة. نظر إليها وقال: «أنا مضطر الآن إلى بيع البنت والرحيل إلى الشمال.»

بعد أن أنصتت جيدًا، ردت «أولين» بطريقتها الثابتة الواضحة: «لننتظر بضعة أيام قليلة، فهناك شيء غريب يحدث حولنا.»

إلا أن «وانج لانج» لم يخرج من الكوخ مرة أخرى أثناء النهار، كان ينتظر حلول الظلام ويذهب للعمل في المحلات في مقابل نصف ما كان يكسبه من قبل. وكان يجر حمولة العربة الثقيلة الممتلئة بالصناديق التي لا يستطيع جرها عدة رجال طوال الليل.

كان يجر العربة طوال الليل ويعود إلى كوخه في الفجر متعبًا جدًا وهو يلهث، ويتناول طعامه وينام. وأثناء النهار يبحث الجنود في الشوارع عن الرجال، بينما كان «وانج لانج» ينام في أمان في كوخه.

من هذا المخبأ في كوخه، استمع «وانج لانج» لأصوات أقدام الجنود وهم يمشون في الشوارع في طريقهم إلى الحرب لساعات طوال. لا أحد يتحدث هذه الأيام مع الآخرين. إن المدينة مليئة بالفزع، وكل رجل يفعل ما يريد أن يفعله بسرعة ثم يغلق باب بيته عليه.

كان هناك تهامس في كل مكان فالعدو يقترب، وكان كل من يملك أي شيء ثمين يخاف عليه، لكن «وانج لانج» لم يكن خائفًا على أي شيء، وكذلك كان حال ساكني الأكواخ. فإذا اقترب هذا العدو .. فليأتي، فليس هناك أسوأ مما هم فيه.

● **بطالة إجبارية:**

قال مديرو المحلات للعمال أنهم لا يريدون أي عمالة جديدة لأن الإقبال على البيع والشراء قد قل هذه الأيام، وهكذا مكث «وانج لانج» في كوخه ليلًا ونهارًا حيث أصبح عاطلًا. في البداية، كان سعيدًا لأنه لم يشعر بالراحة لفترة طويلة. لكنه إن لم يعمل ويكسب خلال أيام

قلائل، فسوف ينفقون البنسات القليلة المتوفرة لديهم بسرعة، وكان «وانج لانج» يفكر فيما يمكن عمله. وحتى تكتمل مأساته، أغلقت المطابخ الشعبية أبوابها أيضًا ولم يكن هناك أي طعام أو عمل ولا أي مارة بالطريق يمكن التسول منهم.

أخذ «وانج لانج» طفلته الصغيرة بين يديه ونظر إليها وقال برقة: «أيتها البلهاء الصغيرة، يبدو أنك ستذهبين إلى بيت أحد الأغنياء، حيث الطعام والشراب، وربما رداء يستر جسدك كله.»

ابتسمت الطفلة وهي لا تفهم أي شيء مما قاله، رفعت يدها الصغيرة لتلمسه، فلم يستطع تحمل ذلك، فنادى على زوجته وقال لها: «أخبريني، هل كانوا يضربونك في البيت الكبير.»

ردت بنغمة ثابتة وحزينة: «كل يوم كانوا يضربوني بسوط من الجلد معلق على حائط المطبخ.»

وفجأة سمع صوتًا وهو جالس يشبه الرعد، فسقطوا جميعًا على الأرض وأخفوا وجوههم بأيديهم. وغطى «وانج لانج» وجه الطفلة بيده وصرخ الطفلان من الرعب.

لكن «أولين» رفعت يدها بعد أن عاد الصمت وقالت: «إن ما سمعت عنه قد حدث. لقد حطم العدو بوابات المدينة، وقبل أن يستطيع أي أحد الرد عليها كانت هناك صيحات بالمدينة، بدأت خافتة ثم أصبحت أكثر وضوحًا وعلوًا. وازداد علو الصوت حتى ملأ شوارع المدينة.

- **أعمال سلب ونهب:**

جلس «وانج لانج» وأسرته وهم ينظرون إلى بعضهم البعض كما لو

كانوا ينتظرون حدوث شيء لا يعرفونه. ثم سمعوا صوت فتح بوابة كبيرة عنوة، جاءهم الصوت عبر السور الكبير. ثم فجأة جاء الرجل الذي تحدث إلى «وانج لانج» ذات مرة في ساعة الغسق فطل عليهم برأسه وقال: «ألا تزالون هنا ؟ لقد حانت الساعة. بوابات هذا الغني مفتوحة أمامنا. اختفت «أولين» بسرعة البرق. مرت من تحت ذراع الرجل وهو يتحدث. وقف «وانج لانج» ببطء، ووضع الطفلة جانبًا وخرج باتجاه بيت ذلك الغني. كانت البوابات الكبيرة مفتوحة، وكان الناس يتدافعون ملتصقين معًا لدرجة أنهم كانوا يتحركون ككتلة بشرية واحدة. فدفع مَنْ في الخلف بـ«وانج لانج» معهم إلى الأمام رغما عن إرادته.

سُحب «وانج لانج» من بهو إلى آخر، فلم ير أي رجل أو امرأة ممن كانوا يعيشون في هذا البيت الكبير، إلا أن الأطعمة كانت مكدسة على طاولة وفي المطابخ كانت المواقد مشتعلة. يبدو أن هؤلاء الناس يعرفون كل شيء في بيوت الأغنياء فقد شقوا طريقهم إلى الداخل حيث توجد أسرّة السادة والسيدات وصناديق ملابسهم الحريرية وثرواتهم. وهذا هو ما توقف عنده الحشد الكبير، تخاطفوا كل شيء ولم يتوقف أي منهم حتى ليرى أو يتفحص ما حصل عليه من غنائم.

لم يأخذ «وانج لانج» فقط أي شيء في أثناء تلك الفوضى. لم يسبق له أن فكر طوال حياته أن يأخذ ما يملكه الآخرون ولا يستطع أن يفعل ذلك فجأة. لذلك وقف في وسط الزحام مذهولًا أول الأمر ثم استعاد شعوره فاندفع تجاه طرف البيت حيث الغرف التي تعيش بها السيدات. كانت البوابة الخلفية مفتوحة حيث هرب الجميع منها اليوم بلا شك. لكن هناك رجل فشل في أن يهرب وتفاجأ بمقدم «وانج لانج» إليه في غرفة خلفية خالية.

● **وانج لانج يبتز رجلاً ويأخذ ماله:**

كان رجلًا سمينًا، ليس شابًا ولا كهلًا. ارتعد عندما رأى «وانج لانج» وخر على ركبتيه وقال: «ابق على حياتي .. لا تقتلني. معي مال لك .. مال وفير.» لم ينتبه «وانج لانج» سوى إلى كلمة «مال» فقال في نفسه: «مال ... أنقذت الطفلة .. الأرض.»

ثم صاح بعد ذلك بصوت لم يكن هو ذاته يتوقع أن يصدر عنه: «أعطنى المال ، إذن !»

وضع الرجل السمين يده في جيبه وهو يتشنج وأخرج حفنة قطع من الذهب وأعطاها لـ «وانج لانج» فأمسك «وانج لانج» بطرف سترته وأخذ الذهب. ثم صاح فيه مرة أخرى بنفس الصوت الغريب فبدا كما لو كان رجلًا آخر: «أعطني المزيد.»

أخرج الرجل يده مملوءة بالذهب مرة أخرى وصاح: «لم يتبق أي شيء لدي الآن سوى حياتي البائسة.» وبدأ في النواح.

نظر إليه «وانج لانج» وهو يرتعش وينوح، وفجأة شعر بكراهية شديدة له لم يشعر بها من قبل في حياته، فصاح فيه: «أغرب عن وجهي، وإلا قتلك أيتها الحشرة السمينة.»

هكذا صاح «وانج لانج» رغم أنه رجل ذو قلب رقيق لم يقو على ذبح الثور. فركض الرجل من أمامه واختفى.

وضع «وانج لانج» الذهب بين طيات ثيابه وخرج من البوابة المفتوحة، ثم عاد إلى كوخه مرورًا بالشوارع الخلفية، وقال في نفسه عدة مرات: «سنعود إلى الأرض ... غدًا نعود إلى الأرض.»

15 عـــــودة

وقبل أن تمر عدة أيام قلائل، كان «وانج لانج « قد عاد إلى أرضه وتخيل أنه لم يبتعد عنها، وفي الواقع هو فعلًا لم يبتعد عنها بقلبه أبدًا. اشترى من الجنوب بذورًا جيدة بثلاثة قطع من الذهب، وهي بذور أرز وقمح وكرنب لم يكن قد سبق له أن زرع مثلها من قبل.

• ثور جديد:

واشترى ثورًا بخمس قطع من الذهب، وذلك من فلاح كان يحرث أرضه. فقد رأى رجلًا يحرث أرضه فوقفوا جميعًا ينظرون إلى الثور. كان «وانج لانج» مأخوذًا بعنقه القوي فصاح قائلًا: «هذا الثور لا يساوي شيئًا، بكم تبيعه سواء بالفضة أو الذهب، فليس لدي بهيمة وأنا مستعد لأي شيء.» رد الفلاح: «يمكنني أن أبيع زوجتي ولا أبيع هذا الثور، إن عمره ثلاث سنوات وهو بأفضل حال» واستمر في الحرث ولم يلتفت لـ «وانج لانج». بدا الأمر بالنسبة لـ «وانج لانج» أنه لابد له أن يشتري هذا الثور بالذات من بين كل الثيران الموجودة بالعالم أجمع. فقال «لأولين» «كيف ترين هذا الثور ؟»

قالت «أولين»: «إنه أكبر مما يقول صاحبه بعام.» لم يجب «وانج لانج» فقد كان قلبه معلقًا بهذا الثور.

وأخيرًا وبعد طول جدال وتشاجر مع الفلاح، وافق الفلاح على بيع الثور بنصف ثمنه في تلك المنطقة فسحبه «وانج لانج» معه.

عندما وصلوا إلى البيت وجدوا بابه منزوعًا وغالب أخشاب السقف أيضًا منزوعة بالإضافة إلى اختفاء المعدات الزراعية التي تركوها. ولكن بعد مرور فترة المفاجأة الأولى، لم يكن كل ذلك يعني أي شيء بالنسبة لـ «وانج لانج». ذهب إلى السوق في المدينة واشترى معدات حقل جديدة وبعض الحُصر لتغطية السقف إلى أن يتمكنوا من بنائه مرة أخرى.

وقف في المساء على باب منزله ونظر إلى الأرض، أرضه، وهي تبدو واسعة وجاهزة للزراعة بعد أن غطتها ثلوج الشتاء. كان وقت الغسق، إلا أنه كان يستطيع رؤية الأشجار على حافة الحقل القريب. كانت أشجار خوخ وصفصاف مخضرة، وكان بعض الضباب الخفيف المتصاعد من الأرض المنتظرة يعلق بجذوع الأشجار.

في البداية كان «وانج لانج» لا يود رؤية أي آدمي، إنه يريد رؤية أرضه فقط ويبقى معها بمفرده. فلم يذهب إلى أي بيت في القرية، وعندما جاءه جيرانه، كان فظًا معهم.

قال لجيرانه: «مَنْ منكم نزع سقف بيتي وأخذ معدات حقلي ؟»

اقترب جاره «شينج» حتى رأى «وانج لانج» وقال له: «أثناء الشتاء، جاءت عصابة من اللصوص وعاشت في بيتك. ويقال إن عمك كان يعرف عنهم أكثر مما يجب أن يعرفه كرجل شريف، ولكن من يعرف الحقيقة هذه الأيام؟»

كان «شينج» نحيفًا جدًا ومصفرًا بالرغم من أنه لم يتجاوز الأربعين من عمره بعد. حملق «وانج لانج» فيه قليلًا، ثم قال: «لقد عانيتم أكثر مما عانينا، ماذا كنتم تأكلون ؟»

تنهد الرجل وهمس: «بل قل ماذا لم تأكلوا؟ فقد أكلنا الكلاب الميتة، وفي ذات مرة صنعت لنا امرأتي قبل وفاتها حساء من لحم لم أستطع السؤال عنه.» ثم صمت قليلًا وقال: «إذا كان عندي بذور، فسأزرع أرضي مرة أخرى، لكني لا أملك أي بذور.»

صاح «وانج لانج» قائلًا: «تعال هنا.» وسحبه من يده إلى داخل البيت وأعطاه بذور قمح وأرز وكرنب وقال: « غدًا سأذهب إلى أرضك وأحرثها بثوري القوي.» بدأ «شينج» يبكي فجأة ولم يستطع الإجابة، ففادر البيت وهو يبكي ويبكي. كان «وانج لانج» سعيدًا لأن عمه اختفى من القرية، ولا أحد يعلم إلى أين ذهب.

• عودة للعمل في الأرض من جديد:

خصص «وانج لانج» بعد ذلك غالب وقته للأرض، لم يكن يريد حتى العودة إلى البيت ليأكل أو ينام، كان يأخذ نصيبه من الخبز والثوم إلى الحقل. وعندما كان يشعر بالتعب الشديد كان ينام في الحقل فيلاصق جسده الدفء المنبعث من أرضه.

لم تجلس «أولين» في البيت دون عمل. فقد أخذت الطمي بيديها من الحقول وخلطته بالماء وأصلحت جدران البيت، وشيدت الموقد مرة أخرى، وسدت الثقوب الموجودة بالأرضيات والتي أظهرتها مياه الأمطار.

ثم ذهبت إلى المدينة في أحد الأيام بصحبة «وانج لانج»، وهناك اشترت أسرّة وطاولة وستة مقاعد. ثم اشتروا إبريق شاي أحمر وستة أكواب تماثله، وأخيرًا اشتروا شمعدانين وشمعتين حمراوين.

16 مزيد من الثروة

وذات ليلة شعر «وانج لانج» بالصدفة بشيء تخفيه زوجته بين ملابسها، فقال لها: «ما هذا الذي تخفيه؟» وأمسك به يجذبه فتركته له وقالت: «انظر إلى ما فيه إذن، إذا كنت مصرًا.» وجذبت الرباط الملفوف حوله والذي كان معلقًا برقبتها، ثم أعطته إياه.

كانت عبارة عن خرقة بالية صغيرة بها أشياء، ما أن مزقها «وانج لانج» حتى وجد في يده مجموعة من المجوهرات. نظر إليها «وانج لانج» ببلاهة، لكنه عرف من خلال البريق المنبعث منه أنه يمسك ثروة في يده. حملق هو وزوجته إلى الثروة التي بيده. همس إليها: «من أين ... من أين ؟»

همست هي أيضًا بنفس الطريقة: «من بيت الرجل الغني. فقد شاهدت قالب طوب متحرك من مكانه بالحائط، فجذبته فوجدتهم يلمعون من خلفه، فوضعتهم في كمي.»

صمتا مرة أخرى أخذا يحملقان في الجواهر، وبعد مرور وقت طويل، قال «وانج لانج» بثبات: «لا يمكنا الاحتفاظ بثروة كهذه، لابد من بيعها وشراء أرض بثمنها، فليس هناك ما هو أكثر أمنًا من ذلك.»

لف المجوهرات في الخرقة البالية مرة أخرى وفتح معطفه ليضعها في جيبه الداخلي، لكنه لمح وجه زوجته بالصدفة، كانت مشتاقة للمجوهرات ومتكدرة لتلك الفكرة.

قال لها: «ما بكِ، ماذا حدث ؟»

قالت بصوت حزين يائس: «تمنيت لو أنني احتفظت لنفسي باثنتين من تلك الجواهر.» فتأثر «وانج لانج» لذلك كما لو كان يشاهد أحد أبنائه وهو متلهف للعبة أو قطعة حلوى.

فصاح في تعجب: « أي قطعتين ... ماذا ... ؟»

أكملت حديثها ببساطة وقالت: «قطعتان فقط .. قطعتان صغيرتان، اللؤلؤتان البيض الصغيرتان. حتى أستمتع بمشاهدتهما في يدي في بعض الأحيان.»

تحرك قلب «وانج لانج» لشيء لم يفهمه، فأخرج الجواهر، وأعطاها إياهم في صمت، فبحثت في الجواهر المتلألئة حتى وجدت لؤلؤتين صغيرتين لونهما أبيض، فأخذتهما وأحكمت رباط البقية وأعطتهم له. أخذت اللؤلؤتين وقطعت جزءًا من قماش ثوبها ولفتهما فيه، وأخفتهما في صدرها وشعرت بالراحة.

لكن «وانج لانج» كان ينظر إليها بدهشة ولم يفهم الأمر جيدًا. أما بالنسبة لبقية الجواهر، فقد قرر أن يذهب إلى البيت الكبير ليرى ما إذا كان لديهم أرض أخرى للبيع.

● **مزيد من الأرض:**

ذهب إلى البيت الكبير، الآن لا يوجد بواب بجانب البوابة، وبدلًا من ذلك كانت البوابات الكبيرة مغلقة، طرقها «وانج لانج» بكلتا قبضتيه، لكن أحدًا لم يرد. ولكن أخيرًا سمع صوت خطوات بطيئة تتجه نحو البوابة وصوت يهمس: « من بالباب ؟»

أدرك «وانج لانج» أن ذلك هو صوت سيد البيت بنفسه، فأجاب:

«سيدي، لقد جئت لأناقش أمرًا مهمًا مع وكيل أعمال سيادتكم.» رد الرجل العجوز من فتحة البوابة: «هذا الكلب تركني منذ عدة أشهر، وهو ليس موجودًا هنا الآن.»

لم يعرف «وانج لانج» ماذا يفعل بعد أن تلقى هذا الرد، كان من المستحيل أن يتحدث مع الرجل العجوز عن شراء الأرض.

قال «وانج لانج»: «جئت من أجل مبلغ صغير، رد الرجل وهو يدفع البوابة: «لا توجد أي نقود في هذا البيت. ثم قال بصوت أعلى: «لا توجد أي نقود بالبيت، لن يتم تسديد أي ديون.

قال «وانج لانج» بسرعة: «لا .. لا. لقد جئت لأدفع مالًا، وليس لتحصيل دين. وهنا سمع «وانج لانج» صيحة غريبة وطلت سيدة برأسها من فتحة البوابة، وقالت بحدة: «هذا شيء لم اسمع به منذ وقت طويل.» وفتحت البوابة بقدر كاف يمكنه من الدخول، ثم أغلقتها بعد دخوله.

كان سيد البيت واقفًا يسعل ويحملق فيه، كان يرتدي ثوبًا رماديًا قذرًا من الستان. حملق «وانج لانج» فيه هو أيضًا ولم يتخيل أبدًا أن السيد الكبير الذي سمع عنه هو هذا الشبح الذي لا يختلف كثيرًا عن أبيه، فمنظره مرعب. وفي الحقيقة، فإن أباه أفضل منه لأنه رجل طاعن في السن، لكنه نظيف ومبتسم، بينما سيد هذا البيت لم يستحم ولم يحلق ذقنه لفترة.

كانت السيدة نظيفة بطريقة ملحوظة وملامح وجهها حادة ووجنتيها وشفاهها حمراوين، إلا أنه من الممكن لمن يستمع إليها أن يستشف من حديثها أنها ليست من عائلة ذلك السيد. إنها مجرد أمة، صوتها حاد ولسانها سليط. وبخلاف هذين، لا يوجد أي فرد آخر بالقصر.

قالت بحدة: «الآن ... ماذا عن المال.» لكن «وانج لانج» لم يستطع

التحدث أمام السيد العجوز، وقد لاحظت الأمة ذلك فقالت لسيد البيت: «اذهب أنت الآن.» فابتعد دون أن ينطق بكلمة وهو يسعل.

ثم قالت بحدة شديدة: «والآن يا صاحب الرأس العنيد، ماذا تريد؟» فزع «وانج لانج» من صوتها عندما بدأت الحديث، وواصلت: «إذا كان معك مال، أرني إياه.»

رد «وانج لانج»: «أنا لم أقل إنني معي مال، بل قلت، لقد جئت من أجل صفقة.» ردت المرأة: «والصفقة تعني المال.» رد «وانج لانج»: «ولكني لا يمكنني أن أتعامل مع امرأة.»

ردت المرأة: «لماذا ؟» ثم صاحت فيه: «ألم تسمع أيها الأحمق أنه لا يوجد أي أحد هنا سواي أنا والسيد العجوز. لا يوجد أحد.»

كان «وانج لانج» مندهشًا لدرجة لم تمكنه من حُسن التحدث فقال: «أين هم إذن ؟»

قالت الأمة: «السيدة الكبيرة ماتت، ألم تسمع أن اللصوص قد اقتحموا البيت وحملوا كل ما يريدون؟ وعلقوا السيد الكبير وضربوه، وربطوا السيدة الكبيرة في كرسي وفروا هاربين. أنا كنت هنا مختبئة، وعندما خرجت من مخبئي بعد أن رحلوا، كانت السيدة تجلس على الكرسي وقد ماتت من الرعب.»

رد «وانج لانج»: «والخدم والعبيد ؟»

ردت بلا اهتمام: «هؤلاء كانوا قد غادروا البيت منذ فترة طويلة، هذا بالنسبة لمن استطاعوا الوقوف على أقدامهم، حيث لم يكن هناك أي طعام أو مال في منتصف الشتاء.»

صمتت المرأة قليلًا، ثم قالت: «كل هذا لم يحدث فجأة، فخلال السنوات الأخيرة توقف السيد الكبير عن متابعة الأرض، كان يأخذ المال

من متعهد الأرض وينفقه.» قال «وانج لانج»: «وأين السادة الشباب؟» ردت المرأة: «أرسل السيد الصغير رسالة ليأخذ أبيه عندما سمع بما حدث لأبيه وأمه. لكني شجعت الرجل على عدم الذهاب.» تفحصها «وانج لانج» جيدًا وفهم ماذا تريد. إنها سيدة متعلقة برجل كبير يحتضر لكي تحصل منه على كل ما يمكن أن تحصل عليه حتى النهاية. فقال لها بهدوء: «والآن وبما أنك مجرد أمة، فكيف يمكنني أن اتفق معك.» فصرخت فيه: «إنه سيفعل كل ما أقوله له.» فكر «وانج لانج» جيدًا في هذا الرد. وقال لنفسه إن الأرض موجودة ويمكن لآخرين أن يشترونها من هذه السيدة، إن هو تقاعس.

قالت بسرعة: «إذا كنت قد أتيت لتشتري أرضًا. فهناك أرض يمكن أن تشتريها، إنها ليست جميعًا قطعة واحدة لكن كل قطعة منها كبيرة. ويمكننا أن نبيعها جميعًا حتى آخر فدان.»

أدرك «وانج لانج» أنها تعرف كل ممتلكات الرجل، إلا أنه لم يكن راغبًا في أن يعقد الصفقة معها.

قال: «يبدو أمرًا محزنا أن يبيع السيد كل أرضه دون موافقة أبنائه.» فردت السيدة بسرعة: «بالنسبة لهذا الأمر ... فقد طلب منه الأبناء أن يبيعها بمجرد أن يستطيع ذلك.»

سأل «وانج لانج»: «لكن لمن أُسلم المال إذن ؟» ردت السيدة: «ليد الرجل الكبير، ومن غيره ؟ لكن «وانج لانج» كان يعلم أن يد الرجل الكبير مفتوحة على يدها. فاستدار وقال: «في يوم آخر ... في يوم آخر.»

مشى في الشارع وهو يود التفكير فيما سمعه. دخل إلى مقهى صغير وعندما وضع النادل الشاي أمامه استغرق في التفكير في البيت الكبير والعائلة الثرية التي سقطت وتفرقت الآن.

قال «وانج لانج» في نفسه: «هذا بسبب الأرض.» وفكر في ولديه

وقرر أنه سيجعلهما يعملان معه في الحقل بداية من ذلك اليوم، حتى يتغلغل حب الأرض في عظامهم ودمائهم منذ الصغر.

لكنه لا يزال يملك الجواهر، ولن يهدأ حتى يحولها إلى أرض. فانتظر حتى انتهى النادل من أعماله وناداه قائلاً: «تعال اشرب معي كأسًا من الشاي وحدثني عن أخبار المدينة، فقد كنت بعيدًا عن هنا طوال الشتاء.» كان النادل مستعدًا دائمًا لمثل هذا الحديث، خاصة إذا شرب كأسًا من الشاي على حساب شخص آخر، فجلس وبدأ في الحديث مباشرة. فقال: «لا توجد أخبار بين الجوعى من الناس، إلا أن خبر سرقة البيت الكبير لعائلة «هوانج» كان خبرًا ملفتًا.»

كان ذلك هو ما يحب «وانج لانج» أن يسمعه. فأكمل الرجل حديثه وأخبره بأن قليلاً من العبيد قد اضطروا للرحيل أو أخذوا عنوة. وأنه لا يوجد من يقدم على الحياة في ذلك البيت سوى الرجل الكبير والذي تتحكم فيه تمامًا أمة تدعى كوكو.»

سأل «وانج لانج»: «وماذا عن الأرض، أهي معروضة للبيع ؟»

رد الرجل دون اهتمام: «نعم الأرض .. سمعت أنها معروضة للبيع.. فيما عدا قطعة الأرض التي دفنت العائلة فيها موتاها.» قام «وانج لانج» واتجه إلى البيت الكبير مرة أخرى واقترب من البوابة الكبيرة وجاءته المرأة مرة أخرى فقال لها: «أخبريني أولاً، هل سيضع الرجل الكبير ختمه على عقد البيع.» فردت السيدة بسرعة: «نعم سيفعل، وأنا أضمن ذلك.» ثم قال لها «وانج لانج»: «هل تبيعين الأرض بالذهب أم بالفضة أم بالجواهر.» فلمعت عيناها وهي تتحدث وقالت: «سأبيعها مقابل الجواهر.»

17 أراض وثيران وعمال

أصبح «وانج لانج» يملك أرضًا لا يستطيع رجل واحد وثور القيام بحرثها وحصادها. فقام ببناء غرفة صغيرة جديدة في بيته، واشترى حمارًا وقال لجاره «شينج»: «بعني قطعة الأرض الصغيرة التي تملكها واترك هذا البيت الذي تعيش فيه بمفردك، وتعال إلى بيتي وساعدني في أرضي. ففعل «شينج» كل ذلك وهو مسرور.

وعندما حان وقت الحصاد لم يستطع هو و«شينج» العمل بمفردهما، فقد كان المحصول كبيرًا جدًا، فاستأجر «وانج لانج» رجلين آخرين كعمال فقاموا بحصاده.

تذكر قصة الشابين العاطلين والكسالى من أسرة «هوانج» الكبيرة، فأخذ طفليه معه إلى الحقول وكلفهما بعمل كل ما تقوى عليه أيديهما الضعيفة أن تعمله.

لكنه لم يسمح لـ«أولين» بالعمل في الحقول، وذلك لأنه لم يعد رجلًا فقيرًا، فالأرض لم تعطه حصادًا مثل حصاد هذا العام. وذلك اضطره إلى بناء غرفة جديدة في البيت لتخزين المحاصيل. كما اشترى ثلاثة حيوانات للمساعدة في الحقل وعددًا كبيرًا من الطيور المنزلية لتأكل مما يتساقط من حبوب الحصاد.

كما أن «أولين» قد عملت بالبيت، فصنعت ملابس جديدة للجميع وأحذية وأغطية محلاة برسوم الزهور، كما فرشت كل سرير بمفارش قطنية للتدفئة. ثم رقدت في فراشها ووضعت مولودًا من جديد، لكنها لم تقبل بوجود أحد معها أثناء الولادة أيضًا.

• توأم:

عندما عاد «وانج لانج» إلى بيته في المساء وجد أباه يقف عند الباب ويضحك. وعندما دخل الغرفة الداخلية وجد «أولين» على الفرش وبجوارها طفلين حديثي الولادة، ولد وبنت متشابهين تمامًا كحبتي الأرز.

ضحك «وانج لانج» بصوت عال بسبب هذا الموقف، وابتسمت «أولين» ابتسامتها البطيئة المجهدة.

لم يكن لدى «وانج لانج» أي شيء يكدره في ذلك الوقت سوى ابنته الكبرى. فهي لا تتكلم ولا تأتي بأفعال مناسبة لسنها، إلا أنها لا تزال تبتسم ابتسامتها الطفولية. مرت الشهور شهرًا تلو الشهر، وانتظر «وانج لانج» ليسمع الكلمات الأولى من طفلته، إلا أنها لم تصدر أي صوت. كان ينظر إليها ويقول: «بلهاء صغيرة ... يالك من بلهاء صغيرة.»

• تقلبات متوقعة:

في هذه المنطقة التي عاش فيها «وانج لانج» وأبوه وجده وأسلافه، كان من المعتاد حدوث مجاعة كل خمس سنوات تقريبًا، كانت المجاعة

تحدث كل سبع أو ثمان أو عشر سنوات في أفضل الأحوال. وذلك لأن المطر إما أن يأتي غزيرًا أو لا يأتي أبدًا. وكذلك فإن النهر القادم إلى الشمال من الممكن أن يفيض عبر الحواجز فيغرق الأرض ويجرف تلك الحواجز التي بناها الرجال خلال عدة قرون.

وقد سبق أن هرب الناس من الأرض عدة مرات ثم عادوا إليها ثانية. إلا أن «وانج لانج» يعد نفسه الآن ليتمكن من البقاء في مكانه أثناء السنوات العجاف. فهو لن يغادر أرضه مرة أخرى. واستمر الحال طيبًا لمدة سبع سنوات، حصد فيها هو ورجاله محصولا يزيد عن الحاجة. كان يستأجر المزيد من العمال كل عام حتى أصبح لديه ستة رجال، فبنى بيتًا جديدًا خلف بيته القديم، به غرفة واسعة خلف الصالة، وغرفتين صغيرتين على الجانبين. كانت الأرضيات من البلاط إلا أن الجدران كانت من طمي الأرض المختلط بالجير، كانت الجدران بيضاء ونظيفة. انتقل هو وأسرته إلى هذا البيت الجديد، بينما ظل العمال وعلى رأسهم «شينج» في البيت القديم في المقدمة.

● **التعليم:**

في نهاية السنة الخامسة كان «وانج لانج» يقوم بأعمال قليلة في حقوله، كان عليه أن يقضي غالب وقته في أعماله وتسويق محاصيله وتوجيه العمال. وكان عدم معرفته بالقراءة عاملًا يعوقه، كما كان يشعر بالغضب بسبب احتقار موظفي صوامع الغلال له. كان يقول في نفسه: «من العار فعلًا ألا أعرف القراءة والكتابة. سأخرج ابني الأكبر من الحقول، وأرسله إلى مدرسة بالمدينة، وعندما أذهب إلى أسواق الغلال سيقرأ ويكتب بدلًا مني حتى أضع حدًا لهذا الضحك الساخر مني.»

في نفس اليوم استدعى ابنه الأكبر، وكان فتى طويلًا عمره 12 عامًا يشبه أمه إلا أن عينيه واسعتان مثل أبيه. وعندما وقف الولد أمامه، قال «وانج لانج»: «من اليوم لن تذهب إلى الحقول، وذلك لأني احتاج إلى فرد

متعلم في الأسرة، ليقرأ العقود ويكتب إسمي وذلك حتى لا أشعر بالخزي وأنا في المدينة.» لمعت عينا الفتى.

قال الفتى: «أبي ... كنت أتمنى ذلك خلال العامين الماضيين، كنت أشعر أن على أن أتعلم، لكني لم أجرؤ أن أطلب ذلك.» وعندما سمع الولد الأصغر بالأمر، جاء يبكي ويشكو قائلا: «لن أعمل أنا أيضًا في الحقول.» لم يستطع «وانج لانج» تحمُّل صراخه فقال بسرعة: «حسن... اذهبا كليكما.»

أرسل أم أولاده إلى المدينة لتشتري قماشًا يصنع منه رداء طويلًا لكل من الولدين، وأصبح أخيرًا كل شيء جاهزًا لكي يذهبا إلى مدرسة صغيرة قريبة من بوابة المدينة يديرها رجل كبير في السن.

في أول يوم أخذهما فيه إلى المدرسة تقدم عنهما قليلًا في المسير لأنه من غير اللائق أن يسير الأب جنبًا إلى جنب مع ولديه. كان معه قطعة قماش زرقاء بها بيض طازج سيعطيه للمعلم عندما يصل. انحنى «وانج لانج» أمام المعلم وقال: «هؤلاء هم ولداي الصغيران: «إذا كان من الممكن أن يفهما أي شيء، فذلك سيكون عن طريق ضربهما، فإذا أردت إسعادي اضربهما حتى يتعلما.»

● **أسماء الأولاد:**

عاد إلى البيت بمفرده، كان قلبه مملوءًا بالفخر. حيث يبدو أنه لا يوجد بالمدرسة من هم أفضل من ولديه، فهما طويلان وقويان ووجهيهما لامعان.

وبداية من ذلك الوقت لم يعد يسمي الولدين «الصغير» و«الكبير» حيث أطلق عليهما المدرس اسمين، فسمى الكبير «ننج إن» والصغير «ننج وين» والمقطع الأول من كلا الاسمين معناه «من كون ثروته من الأرض».

18 الفيضان

هكذا أسس «وانج لانج» مستقبل أسرته، وعندما جاءت السنة السابعة كان النهر الشمالي مملوءًا بالماء بسبب كثرة المطر والثلوج في الشمال الغربي، ففاض على الجهتين، وأغرق كل الأراضي المجاورة لضفتيه. لكن «وانج لانج» لم يكن خائفًا، لم يخف بالرغم من أن خمسي أرضه أصبحت كالبحيرة، يصل الماء فيها إلى كتف الرجل أو أكثر. كان لديه ديونًا سيجمعها من سوق الغلال، كما كانت مخازنه لا تزال ممتلئة بمحاصيل عامين سابقين، وبيته في مكان عال بعيدة جدًا عن الماء.

لكن بسبب عدم صلاحية جزء كبير من الأرض للزراعة، أصبح «وانج لانج» خاليًا من العمل لوقت أطول من أي وقت مضى في حياته كلها. وهو لا يستطيع الجلوس طوال النهار يحملق في بركة الماء التي تغطي أرضه، ولا يستطيع أيضًا أن يأكل أكثر من طاقته. كان عندما ينام يشعر بأن النوم ليس له نهاية. البيت صامت، صامت جدًا بالنسبة له. لقد أصبح أبوه ضعيفًا جدًا الآن، وليس هناك أي حديث يمكن أن يدور معه فيما عدا السؤال عن تدفئته وطعامه أو أن يسأله عما إذا كان يريد أن يشرب شايًا. هذا الوضع ضايق «وانج لانج»، لأن الرجل الطاعن في السن لا يدري أن ابنه أصبح غنيًا جدًا. فهو ينسى كل ما يقولونه له فورًا.

لا يريد أبوه الطاعن في السن وابنته الكبرى التي تجلس لساعات وساعات بجوار جدها ولا تنطق بكلمة وتلعب بقطعة قماش أن يقولا له أي شيء. كان «وانج لانج» لا يملك سوى أن ينظر إلى ابنته الكبرى، ثم إلى

الطفلين الولد والبنت الذين وضعتهما «أولين» معًا وقد أصبحا يركضان في سعادة الآن.

لكنه لن يقنع بمجرد مشاهدة أطفاله يلعبون، نظر إلى زوجته «أولين» وشعر كأنه ينظر إليها للمرة الأولي في حياته، ولاحظ لأول مرة أنها امرأة حزينة تعيش في صمت، ولا تفكر كيف تبدو أمام الآخرين. وبينما هو ينظر إليها صاح: «كل من يراك سيظن أنك زوجة عامل عادي ولست زوجة صاحب أرض.»

كانت تلك هي المرة الأولى التي تحدث فيها معها عن نظرته لها، احمر وجهها خجلًا وصعدت الدماء إلى جوار عظام وجنتيها، وقالت: «لم أعد على ما يرام بعدما وضعت هذين الصغيرين معًا، هناك نار في جوفي.»

رد بخشونة زائدة عما كان يقصد: «أنا أقصد ... ألا تستطيعين شراء بعض الزيت لشعرك مثلما تفعل النساء وتحيكين لنفسك ثوبًا جديدًا من القماش الأسود ؟»

لم ترد ولكنها نظرت إليه بتذلل، ورغم أنه كان يشعر بالخزي لأنه

تحدث إليها بهذه الطريقة وهي من أخلصت له طوال تلك السنوات واتبعته ككلب مخلص يتبع صاحبه أينما ذهب، إلا أنه استمر قائلًا: «وقدميك هذه ...».

توقف عن الكلام ... فقد أصبحت تبدو قبيحة جدًا بالنسبة له، لكن أقبح ما فيها كانت قدميها وهي تضعهما في ذلك الحذاء الكبير المصنوع من القطن، فنظر إليهما في غضب جعلها تخفيهما تحت المقعد. ثم همست أخيرًا: «لم تربطهما أمي[1]، لقد باعوني وأنا صغيرة السن جدًا، لكني سأربط أقدام طفلتي الصغيرة.»

شعر بالخزي لأنه حدثها بغضب، فارتدى ثوبه الأسود الجديد وقال: «سأذهب إلى المقهى الجديد لأرى ما إذا كان هناك أي أخبار جديدة. فلا يوجد في بيتي سوى الحمقى ورجل طاعن في السن وطفلين.»

الآن يوجد بالمدينة مقهى كبير جديد افتتحه حديثًا رجل من الجنوب، كان «وانج لانج» يرغب في نسيان أنه كان فظًا مع زوجته، فذهب إلى ذلك المقهى.

في البداية لم يتحدث في المقهى الكبير، لكنه اشترى شايًا وجلس يشربه وينظر حوله مندهشًا. كان المحل عبارة عن صالة كبيرة ذات جدران ضخمة عليها صور مرسومة على حرير أبيض رسمتها امرأة. ظن «وانج لانج» في أول مرة رأى فيها هذه الصور أنها لنساء من الأحلام، شرب الشاي في أول يوم وخرج بسرعة.

(1) كان الصينيون يعتقدون أن ربط أقدام الأطفال وهم صغار يمنعها من النمو الزائد عن الحد ويجعلها حسنة المظهر. (المترجم)

● **إدمان الذهاب إلى المقهى:**

لكن ظل الماء راكدًا في أرضه يومًا بعد يوم فكان يذهب إلى المقهى يشرب الشاي ويحملق في صور النساء الجميلة. كان من الممكن أن يستمر على هذا الحال لعدة أيام كثيرة إلا أنه كان يجلس ذات ليلة يشرب الشاي ويحملق في الصور، فجاءه شخص من سُلم ضيق في الجزء الخلفي للمقهى، وربت على كتفه. انتبه بفزع وعندما نظر إلى هذا الشخص وجده امرأة جميلة. إنها «كوكو» التي تسملت منه الجواهر يوم شراء الأرض.

قالت وهي تضحك عليه: «نعم .... أنت «وانج» الفلاح ... من كان يظن أن نلتقي هنا.»

اعتقد «وانج لانج» أن عليه أن يظهر للمرأة أنه أكثر من مجرد فلاح بسيط، فضحك وقال بصوت عال جدًا: «أليست أموالي مثل أموال أي شخص آخر ... أنا أملك المال الآن.»

توقفت «كوكو» عند هذه الكلمات وأصبح صوتها رقيقًا جدًا وقالت: «ومن لم يسمع عن ذلك ؟ لا يمكن لرجل مثلك أن ينفق أمواله سوى في مكان مثل هذا ... لدينا أفضل الخمور؟ هل تذوقتها يا «وانج لانج».

قال «وانج لانج» وهو خجلان: «لم أشرب سوى الشاي.»

ردت مستفسرة: « شاي ! » ثم ضحكت بصوت مرتفع وقالت: «اعتقد أيضًا أنك لم تنظر إلى أي شيء آخر.»

قال: «لا ... لا ... لم أفعل.»

• امرأة جديدة في حياة وانج لانج:

ضحكت المرأة مرة أخرى وأشارت إلى الصور المرسومة وقالت: «اختر من تريد أن تراها منهم وضع الفضة في يدي أحضرها أمامك.»

قال: «ظننت أنهن نساء في الأحلام فقط، كهؤلاء الذين يتحدث عنهن راوي القصص.» قال ذلك وبدأ في النظر إلى الصور.

قالت «كوكو»: «نعم إنهن فتيات الأحلام، لكن قليلًا من الفضة يجعلهن حقيقة.» ومضت في طريقها.

جلس «وانج لانج» يحملق في الصور باهتمام من نوع جديد، أدرك الآن أن بعضهن أجمل من الأخريات، وهناك واحدة هي أجمل الكل، صغيرة ونحيفة ووجهها دقيق مثل القطة الصغيرة، وتمسك بيدها إحدى زهرات اللوتس.

نظر إليها ثم قال فجأة وبصوت عال: «إنها مثل الزهرة.» وعندما سمع صوته تنبه وشعر بالخزي، فنهض بسرعة ووضع ثمن ما شرب من الشاي وخرج في جنح الظلام.

19 حب ووقت ضائع

إذا كان الماء قد زال عن أرض «وانج لانج» في تلك الفترة فإنه لم يكن ليعود إلى المقهى مرة أخرى، ولم يكن ليفكر في ذات الوجه الجميل. لكن الماء لم يزل فظل «وانج لانج» متوترًا يتجنب نظرات «أولين» التي كانت تنظر إليه بيأس وهو يذهب هنا وهناك، يجلس على الكرسي ثم يقوم عنه دون أن يشرب الشاي الذي صبته له. وفي يوم في نهاية الشهر السابع على تلك الحال، وبدون أن يتكلم دخل إلى غرفته وارتدى رداءه الجديد الأسود اللامع وذهب إلى المقهى الجديد.

وقف «وانج لانج» عند مدخل المقهى حيث الأضواء الشديدة وكان على وشك أن يبتعد لولا أن لاح خيال امرأة بالداخل تجلس بلا حركة. إنها «كوكو». عندما شاهدت من القادم قالت: «إنه الفلاح ! «

شجع الغضب «وانج لانج» على أن يقول: «ألا يمكنني أن أدخل كما يفعل الآخرون من الرجال ؟»

ضحكت «كوكو» وقالت: «إذا كان معك فضة مثل بقية الرجال.»

أراد «وانج لانج» أن يظهر لها أنه غني بدرجة كافية فأخرج حفنة من قطع الفضة وقال لها: «هل هذا كاف أم لا ؟»

حملقت في حفنة الفضة وقالت: «تعال وقل ما تشاء.»

غمغم «وانج لانج» دون أن يدري ما يقول: «أنا لا أعرف أني أريد أي شيء.» ثم همس: «تلك الصغيرة ذات الوجه الذي يشبه الزهرة التي تمسك بزهرة اللوتس في يدها، أريد مقابلتها.»

الآن أصبح «وانج لانج» مريضًا بمرض عضال. فهو يذهب كل يوم إلى المقهى، ويقابل تلك الفتاة التي تدعى «لوتس» كل ليلة.

واستمر «وانج لانج» في مقابلة الفتاة كل ليلة طوال الصيف. وهو لا يعرف عنها شيئًا وقلما أنصت إلى حديثها المتواصل، كان يشاهد وجهها ويديها وعينيها الجميلتين فقط. وعندما ضحكت الفتاة ساخرة من ضفيرة شعره، خرج دون أن يتكلم وقصها، وذلك بالرغم من أن أحدًا لم يقنعه بذلك من قبل. وعندما علمت «أولين» بما فعل، صرخت في رعب وقالت: «لقد قطعت حياتك!»

لكنه صرخ فيها قائلًا: «هل على أن أبدو أحمقًا وعتيق المظهر دائمًا، كل الشباب في المدينة يقصرون شعورهم.»

بدأ الآن يغتسل كل يوم وكان نادرًا ما يستحم فيما قبل، لذلك قالت زوجته وهي مضطربة: «ستموت من كثرة الاستحمام.»

اشترى صابون ذو رائحة طيبة وكان يستخدمه في دعك جلده. وأصبح لا يأكل الثوم أبدًا مهما كلفه الأمر، رغم أن ذلك كان شيئًا محببًا له من قبل، أصبح يخشى أن تكون رائحته كريهة أمام «لوتس».

لكن «أولين» قالت له ذات يوم: «بك شيء يجعلني أتذكر واحدًا من شباب البيت الكبير.» ضحك «وانج لانج» بصوت عال، لكنه كان مسرورًا من داخله وبدءًا من ذلك اليوم أصبح عطوفًا عليها أكثر مما كان منذ أيام عديدة.

- **إسراف واضح وبذخ شديد:**

المال والفضة ينسابان من بين يدي «وانج لانج» الآن، كان عليه أن

يشتري حلي وجواهر للفتاة. و«أولين» لا تزال صامتة، تشاهده في يأس فقط، وذلك لأنها كانت تخشى من ذلك اليوم الذي يدرك فيه أنها ليست جميلة وأن قدميها كبيرتان. كانت تخشى أن تسأله عن أي شيء بسبب غضبه الدائم المتربص بها الآن.

إلى أن جاء يوم وعاد «وانج لانج» إلى البيت مارًا بالحقول واقترب من زوجته وهي تغسل ثيابه في البركة. وقف هناك إلى جوارها صامتًا لفترة ثم قال لها بخشونة وخزي: «أين اللؤلؤ الذي تحتفظين به؟»

ردت في خوف تاركة قطعة الملابس التي كانت تضربها فوق حجر أملس ناعم: «اللؤلؤ ؟ .. معي.»

وبعد صمت قليل صاح فجأة: «أعطيني إياه، فإني بحاجة إليه !»

وضعت يدها -التي تجعدت من كثرة بقائها في الماء- بين طيات ملابسها ببطء وأعطته اللفافة الصغيرة ونظرت إليه وهو يفتحها، واللآلئ تلمع في ضوء الشمس، وهو يضحك.

استدارت «أولين» واستمرت في عملها في ضرب الملابس، وعندما تساقطت الدموع من عينيها بغزارة وبطء، لم ترفع يدها لتمسحها بل استمرت في ضرب الثياب بقطعة من الخشب فوق الحجر.

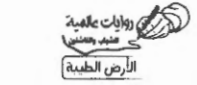

20 عودة العم الشرير

كان الحال سيستمر كذلك حتى تنتهي كل الفضة التي يملكها «وانج لانج» إلا أن عمه عاد فجأة دون أن يوضح أين كان أو ماذا فعل. وقف عند الباب بثيابه الممزقة مفكوكة الأزرار وابتسم ابتسامة عريضة لهم جميعًا وهم يجلسون على المائدة لتناول طعام الإفطار.

نهض «وانج لانج» وقال: «هذا هو عمي، هل أكلت يا عم.»

رد العم: «لا ... لكني سآكل معكم.»

جلس وسحب طبقًا وعصي تناول الأرز وأكل كما لو كان جوعان جدًا. وعندما انتهى من الطعام قال ببساطة توحي بأنه يمارس حقوقه العادية: «الآن سأنام، لأني لم أنم منذ ثلاثة ليال.»

ارتبك «وانج لانج» ولم يعرف ماذا يفعل سوى أن قاده إلى فراش أبيه، فخر الرجل عليه ونام دون أن ينطق بكلمة واحدة.

كان «وانج لانج» يعلم أنه لا يمكن إبعاد عمه الآن لأنه يعلم بأنه قد أصبح غنيًا. كما أنه يعتقد أن من الممكن أن تأتي زوجة عمه أيضًا إلى البيت ولا يستطيع أحد أن يمنعها.

وحدث ما كان يخشاه، خرج عمه من الغرفة بعد الظهر وقال لـ«وانج لانج»: «الآن سأحضر زوجتي وابني. ففي هذا البيت الكبير سنجد المأكل الجيد والملبس.»

لم يستطع «وانج لانج» أن يفعل أي شيء لكنه رد على عمه بنظراته الغاضبة، وذلك لأنه من العار على الرجل أن يطرد عمه وابن عمه من بيته. إلا أنه كان غاضبًا بشدة لأنه كان عليه أن يخفي مشاعره ويبتسم أمام أقاربه تحية لهم. ولم يذهب إلى المدينة لمدة ثلاثة أيام.

وعندما لاحظ أن عمه وأسرته سيكونون ملتزمين بالأدب في مقابل المأكل والمأوى بدأ يفكر من جديد في الفتاة «لوتس». لاحظت زوجة عمه حالته بسرعة، وعلمت ما به، فنادت على زوجته وهي تضحك وقالت: «إن زوجك يسعى إلى أن يقطف وردة من مكان ما.» وعندما نظرت إليها «أولين» باحتقار دون أن تفهم، ضحكت مرة أخرى وقالت: «حسن ... زوجك مفتون بامرأة أخرى.»

• ترتيب للزواج:

وعندما سمع «وانج لانج» كلام زوجة عمه وهو مستلق في غرفته في صباح أحد الأيام خطرت له فكرة بسرعة بأنها أصلح من يمكن أن ترتب لزواجه، فقام فورًا من فراشه ونادى زوجة عمه خلسة، وعندما لحقت به إلى خارج البوابة، حيث لا يسمعهما أحد قال: «لقد سمعت ما قلتيه بالداخل، وأنت على حق. فلماذا لا أتزوج مرة أخرى، فأنا لدي كل هذه الأرض التي تكفي لإطعامنا جميعًا، لكن من يمكنه أن يتوسط في تلك الزيجة؟»

قالت: «اترك الأمر لي ... فقط اخبرني من هي تلك المرأة.»

أجاب «وانج لانج»: «إنها تدعى «لوتس» وتعيش في المقهى الكبير في الشارع الرئيسي في المدينة.» فكرت لبعض الوقت ثم قالت: «لكنى لا أعرف أي أحد هناك.» أخبرها «وانج لانج» بعد ذلك عن المرأة التي تدعى «كوكو» والتي كانت أمة في بيت «هوانج» الكبير.

ردت: «أهي تلك، الأمر إذن بسيط جدًا. إنها على استعداد لأن تفعل أي شيء في مقابل أن نضع الفضة في يدها.»

قال: «فضة فقط، لا ... فضة وذهب، أي شيء تطلبه حتى آخر بنس من ثمن أرضي.»

لم يذهب «وانج لانج» بعد ذلك إلى المقهى حتى يتم الانتهاء من

الإعداد للزواج، وكان من حين لآخر يقابل زوجة عمه ويعطيها المال والملابس الحريرية للعروس «لوتس»، إلى أن صاحت فيه المرأة أخيرًا قائلة: «هل أنا حمقاء، هذه ليست أول زيجة أعد لها، اتركني لحالي وسأنتهي من كل شيء بمفردي.»

فكر «وانج لانج» في أن بيته به امرأتان ولابد من وجود بيت ثان، فنادى على عماله خلال فترة انتظاره لزوجة عمه حتى تنهي أمور الزواج وجعلهم يبنون بيتًا آخر يلتصق بالبيت من الخلف عند صحن البيت، وهو مكون من صالة وثلاثة غرف، غرفة كبرى وغرفتان صغيرتان على الجانبين. أخذ العمال الطمي من الأرض وصنعوا الجدران. وأرسل «وانج لانج» من يحضر ألواح السقف من المدينة.

وعند الانتهاء من بناء الجدران، مهد الرجال أرضيات الغرف الثلاثة وبلطوها. اشترى «وانج لانج» أقمشة حمراء للستائر وطاولة جديدة وكراسي مزخرفة بالحفر، بالإضافة إلى صندوق مدهون باللون البني وملأه بالحلوى وكعكات السمسم ووضعه على الطاولة. ثم اشترى فراشًا مزخرفًا بالحفر وستائر مزينة بالزهور معلقة حوله. لكنه كان يشعر بالخزي فلم يطلب من «أولين» أن تشارك في أي من تلك الأعمال، لذلك قامت زوجة عمه بعمل كل ما يعجز عنه الرجال في تلك الأحوال.

ثم انتهى الأمر ولم يعد هناك أي شيء يمكن إعداده. لكن الزيجة لم تكن قد تمت بعد. لذلك نادى «وانج لانج» على عامل من عماله وطلب منه أن يحفر حوضًا بمساحة ثلاثة أقدام مربعة، فحفره العامل وغلفه بالبلاطات من الداخل، وذهب «وانج لانج» إلى المدينة واشترى خمس سمكات ذهبية ليضعها في الحوض.

طوال تلك الفترة لم يكن «وانج لانج» يتحدث مع أحد سوى أن ينهر الأطفال إذا كانوا قذرين أو يصيح في «أولين» قائلًا لها إنها لم تمشط شعرها لمدة ثلاثة أيام، إلى أن انفجرت باكية ذات صباح، بكت بصوت

عال كما لم يحدث من قبل، فقال لها بغلظة: «ما الأمر يا امرأة ؟ ألا أستطيع أن أقول لك أن عليك تمشيط ذيل الحصان هذا دون كل هذه الضجة ؟» لكنها لم تجبه بأي شيء سوى بقولها: «لقد حملت أولادك، لقد حملت أولادك.»

وقف صامتًا من خزيه أمامها، ثم تركها وانصرف.

ومرت الأيام على هذه الحال إلى أن جاءت زوجة عمه وقالت: «كل شيء جاهز، لكن عليك أن تدفع مائة قطعة من الفضة، لأن البنت تريد حلقًا وخاتمًا مرصعين بأحجار كريمة وخاتمًا من ذهب وفستانين من قماش الستان واثنين من الحرير واثني عشر حذاءً وغطاءين من الحرير لفراشها.

سمع «وانـج لانـج» جـزءًا فقط من حديثها، وركض إلـى الغرفة الداخلية وأحضر الفضة وأعطاها لزوجة عمه وهو يقول: «خذي عشر قطع من الفضة لك.» فهمست بصوت مسموع: «لا ... لن أفعل نحن أسرة واحدة، وأنا أفعل ذلك من أجلك وليس من أجل الفضة.» إلا أن «وانج لانج» لمح يدها ممدودة فعد لها قطع الفضة، ثم اشترى أطايب الطعام وانتظر.

● **العُـرس:**

وفي يوم ساطع في الشهر الثامن من السنة، حيث تكون نهاية الصيف، جاءت إلى بيته. رآها «وانج لانج» من بعيد فدخل بسرعة إلى غرفته وأغلقها عليه وهو لا يدري ماذا يفعل، انتظر في الظلام حتى سمع صوت زوجة عمه تناديه ليخرج. كانت «كوكو» موجودة فصاحت: «تعالي يا زهرة اللوتس، هذا هو بيتك، وهذا هو سيدك.»

نزلت «لوتس» تتهادى من الهودج الذي جاءت عليه وأمسكت بيد «كوكو» وعندما مرت أمامه أومأت برأسها وأرخت جفونها وهمست في ضعف: «أين غرفتي ؟»

تقدمت زوجة عمه وقادت الفتاة «لوتس» إلى الصالة الكبيرة ثم الغرفة التي بناها لها «وانج لانج» وعندما دخلت أغلقت «كوكو» الستائر خلفهم.

وبعد فترة خرجت زوجة عمه تضحك وتقول: «إنها ليست صغيرة جدًا كما تبدو يا ابن أخي، أستطيع أن أؤكد ذلك، فإذا كانت قد اقتربت من السن الذي سيتوقف الرجال فيه عن النظر إليها، فإن الجواهر والذهب والحرير يجعلوها تقبل الزواج من فلاح.» لكنها لاحظت غضب «وانج لانج» فأضافت بسرعة: «لكنها جميلة، أنا لم أر من هي أجمل منها.»

لم تقترب «أولين» من البيت طوال تلك الفترة، فكانت تأخذ فأسًا في الفجر وتنادي على أطفالها وتأخذ طعامًا باردًا ولا تعود، لكن عندما يحل الظلام تدخل صامتة ومتعبة ولا تتحدث مع أحد، لكنها تدخل إلى المطبخ وتعد الطعام وتضعه على المائدة كما تفعل دائمًا وتنادي على العجوز وتطعم الأسرة الفقيرة ثم تأكل قليلاً من الطعام مع أطفالها. ثم بعد أن ينام الجميع تغتسل وتدخل غرفتها لتنام.

كان «وانج لانج» يدخل إلى غرفة «لوتس» التي تجلس دائمًا بلا عمل، لم تخرج أبدًا في الجو الخريفي الحار، إلا أنها كانت ترقد أمام المرأة التي تدعى «كوكو» لتغسل لها جسدها، حيث رأت أن تبقى معها كخادمة لها.

كانت «لوتس» تجلس في الظلام والرطوبة داخل غرفتها طوال اليوم، تلعب في الحلوى والفواكه بأيديها وترتدي ملابس من الحرير الأخضر. وعند مغيب الشمس تخرج إلى صحن البيت وتنظر إلى بركة الأسماك والسمكات الذهبية الخمس بداخلها. وكان «وانج لانج» يقف ليتطلع إلى جمالها.

21 مشكلات من جديد

توقع «وانج لانج» أن وجود «لوتس» وخادمتها «كوكو» سوف يسبب مشكلات من نوع ما، حيث أن وجود أكثر من امرأة تحت سقف واحد يعكر صفو الحياة. وعلى الرغم من أنه لاحظ نظرات «أولين» الحزينة ونظرات «كوكو» الحادة وأن ذلك يوحي بشيء ما إلا أنه لم يُعر ذلك اهتمامًا.

لكنه أخيرًا لاحظ أن هناك مشكلات بين «أولين» و«كوكو». هذا جعله يندهش، لأنه كان يتوقع أن تكره «أولين» وجود «لوتس»، لكنها صامتة فيما يخص «لوتس» بينما تصب غضبها الشديد على «كوكو».

ويبدو أن «أولين عندما رأت «كوكو» غضبت غضبًا شديدًا لم يعهده «وانج لانج» من قبل. قالت له: «ماذا تفعل تلك الأمة في بيتنا؟» وعندما لاحظ «وانج لانج» أنه لابد أن يجيب عليها قال: «وما يعنيك في ذلك ؟»

نزلت الدموع الساخنة من عيني «أولين»، وأخيرًا أمسكت بطرف ثوبها الأزرق ومسحت عينيها وقالت: «أصبح الوضع مؤلمًا في بيتنا، وليس لي بيت أب أذهب إليه، ليس لي أي مكان أذهب إليه.» ونظرت إليه بحزن وعينين دامعتين، ثم خرجت تتحسس طريقها إلى الباب فقد أعمتها الدموع.

نظر «وانج لانج» إليها وهي تسير وكان مسرورًا لبقائه بمفرده لأنه كان يشعر بالخزي.

لكن الأمر لم ينته بالنسبة لـ«أولين». كانت تسخن الماء في الصباح

عندما جاءت «كوكو» تبحث عن ماء ساخن لسيدتها، وكانت الغلاية فارغة، ثم بعد ذلك شُغلت الغلاية في إعداد عصيدة الصباح ولم يكن هناك مكان لتسخين الماء لـ«لوتس»، واستمرت «أولين» في أعمال الطبخ ولم تعر شكاوى «كوكو» أي اهتمام.

ذهبت كوكو إلى «وانج لانج» فصاح في «أولين»، فردت بغضب لم يره على وجهها من قبل وقالت: «أنا لست أمة أعمل عند إماء هذا البيت.» شعر «وانج لانج» بغضب وهز «أولين» من كتفها وقال: «لا تكوني حمقاء، الماء ليس للخادمة، ولكن لسيدتها.» نظرت إليه وقالت بسذاجة: «تلك التي أعطيتها اللؤلؤتين الخاصتين بي.»

• موقد ومطبخ جديد:

تراجعت يد «وانج لانج» وزال غضبه، ومضى وهو يشعر بالخزي، قال لـ«كوكو»: «سنقيم موقدًا آخر وسأبني مطبخًا آخر. زوجتي الأولى لا تعرف أي شيء عن الأطعمة الشهية التي تحتاج إليها زوجتي الثانية والتي تحبينها أنت أيضًا. سوف تطبخين في المطبخ الجديد كل ما يحلو لك.»

لذلك طلب من العمال أن يبنوا غرفة صغيرة وموقد من الطوب اللبن واشترى غلاية جيدة، وبدا له أنه تخلص من مشكلاته واستقرت الأمور، وأن نساءه يعيشون في سلام.

لكن المطبخ الجديد أصبح مصدر إزعاج بالنسبة له، لأن «كوكو» كانت تذهب إلى المدينة كل يوم وتشتري كل أصناف الطعام الغالية التي لم يسمع عنها قط. كل ذلك يكلفه أموالا لا يحب أن ينفقها، إلا أنها لا تزال مبالغ معقولة كما تقول له «كوكو»، كما أنه كان لا يود أن يعترض فتغضب «لوتس»، فقلل ذلك الأمر من حبه لها.

وهناك مشكلة أخرى نتجت عن المشكلة الأولى، وهي أن زوجة عمه التي تحب الطعام الشهي كانت دائمة الذهاب للبيت الداخلي في أوقات تناول الوجبات وكانت تتصرف بطبيعتها هناك، لم يكن «وانج لانج» سعيدًا لأن تختار «لوتس» هذه المرأة من بيته لتصادقها.

لكنه عندما تحدث مع «لوتس» في هذا الأمر عارضته وقالت: «ليس لي أحد سواك هنا، زوجتك الأولى تكرهني وأطفالك يضايقوني، ليس لي أحد. أنت لا تحبني، إن كنت تحبني حقًا لتمنيت أن أكون سعيدة.»

رق قلب «وانج لانج» وقال: «ليكن ما تريدين ... وإلى الأبد.»

وبعد ذلك، عندما كان يأتي إلى بيتها وهي تتحدث أو تأكل مع زوجة عمه، كانت تجعله ينتظر ولا تهتم به، فبرد حبه لها دون أن يشعر. تضاءل حبه لها من خلال مشكلات متتالية كانت تغضبه بسببها، ولم يكن يستطع الذهاب إلى «أولين» والتحدث معها.

- **العجوز يكتشف وجود الزوجة الجديدة:**

ثم حدثت مشكلة جديدة لـ «وانج لانج» حيث استيقظ أبوه ذات يوم من النوم في الشمس ومشى في خطوات بطيئة إلى الستارة التي تفصل بين البيتين، جذب الستارة فرأى «لوتس». لم يكن قد رآها من قبل. وفي المساء، عندما دخل «وانج لانج» إلى بيت «لوتس» وكان يقف بجوارها عند حوض الأسماك، رأى العجوز ابنه يقف بجوار شابة نحيفة، فصاح بصوت واهن: «من هذه المخلوقة؟»

خشي «وانج لانج» أن تغضب «لوتس» فأخذ الرجل العجوز إلى البيت الآخر وهو يقول له: «اهدأ يا أبي. إنها زوجتي الثانية.»

لكن العجوز لم يهدأ وصاح في «وانج لانج»: «لكني تزوجت امرأة واحدة، وأبي تزوج امرأة واحدة. وكنا نزرع الأرض.»

أصبح العجوز معاديًا لـ«لوتس» منذ ذلك الحين، فكان يزيح ستائر منزلها ويبصق على البلاط أو يلقي بحصوات صغيرة في الحوض ليزعج الأسماك. وكان «وانج لانج» يخجل من أن يتحدث مع أبيه في ذلك، إلا أنه كان يخشى غضب «لوتس».

● **مشاغبات الأطفال:**

وفي يوم سمع «وانج لانج» صرخة عالية من البيت الداخلي، فهرول إلى هناك فاكتشف أن اثنين من أطفاله الصغار قد اصطحبوا ابنته الكبرى البلهاء إلى هناك. فقد كان الأطفال الأربعة متشوقين لرؤية السيدة المقيمة بالبيت الداخلي. كان الاثنان الكبار يشعرون بالخجل أما الاثنان الصغار فلم يكتفيا أبدًا بالنظر من الثقوب الصغيرة. فكانوا يضعون أصابعهم في أطباق الطعام التي تحملها «كوكو» بعد أن تأكل منها. وسبق أن شكت «لوتس» عدة مرات من أن أطفاله يضايقونها، وكان «وانج لانج» يجيب: «إنهم يحبون النظر إلى هذا الوجه الجميل مثل أبيهم تمامًا.» ولم يفعل «وانج لانج» أي شيء سوى أن يمنعهم من الدخول إلى البيت الداخلي، ولكن عندما يكون بالخارج كانوا يدخلون ويخرجون خلسة.

وفي ذلك اليوم، كان الولدان الكبيران في المدرسة، فخطرت للأطفال الصغار فكرة أن يدخلوا الطفلة البلهاء إلى البيت الداخلي لترى السيدة الموجودة فيه هي أيضًا. وعندما رأت الطفلة البلهاء الألوان اللامعة التي ترتديها «لوتس» مدت يدها محاولة أن تلمسها وضحكت بصوت عال. فزعت «لوتس» التي لم تر البنت البلهاء من

قبل وصرخت، وعندما دخل «وانج لانج» صاحت: «لم تقل لي أن على أن أتحمل المتخلفين عقليًا ... لو أكن أعلم، ما كنت جئت إلى هنا... أطفالك أقذار.»

قال «وانج لانج» بخشونة: «لا أحب أن يقال ذلك عن أطفالي، ولا حتى عن الطفلة البلهاء.» وقال للأطفال: «اذهب يا ابني ... اذهبي يا ابنتي، لا تأتيا إلى بيت هذه المرأة مرة أخرى، إنها لا تحبكم، ومن لا يحبكم لا يحب أبيكم أيضًا.» كان غاضبًا جدًا من «لوتس» لأنها جرؤت على التحدث عن طفلته بتلك الطريقة فقالت عنها متخلفة، فلم يقترب منها لمدة يومين. وعندما دخل إلى بيت «لوتس» مرة أخرى، لم يتحدث أي منهما للآخر عن غيابه لمدة يومين، لكنها بذلت جهدها لترضيه، فأخذت بيده إلى وجهها. لكنه بالرغم من عودة حبه لها مرة أخرى، لم يعد يحبها كما كان من قبل.

• حُب الأرض أكبر:

إلى أن جاء يوم بعد نهاية الصيف، وهبت رياح خريفية صافية بقوة على الأرض، قام «وانج لانج» كما لو كان غافلاً، فخرج إلى باب بيته، فرأى أن الماء قد اختفى، وأن الأرض تلمع تحت الرياح الباردة الجافة وشمس قوية.

كان حب الأرض في داخله أعمق من أي حب آخر. خلع ملابسه الجميلة وشمر سرواله إلى ركبتيه وصاح: «أين الفأس؟ أين المحراث؟ أين البذور لنزرع القمح ؟ تعال يا «شينج» تعال يا صديقي ... نادي الرجال ... سأخرج إلى الأرض.»

22 عودة إلى العمل الشاق

وكما استراح قلب «وانج لانج» بالعودة من الجنوب، استراح الآن مرة أخرى لشفائه من مرض الحب، فقد مكنته من ذلك الأرض الطيبة والحقول. إنه يأمر عماله هنا وهناك، كان في البداية يقف خلف الثيران، ثم نادى لـ«شينج» وأعطاه الحبال، ثم أخذ الفأس بنفسه وراح يضرب الأرض. فعل ذلك ليشعر بالسعادة التي تصاحب العمل وليس لضرورة أو اضطرار. وعندما شعر بالتعب استلقى ونام على أرضه.

وعندما حل الظلام دخل إلى بيته كان جسده يؤلمه ويشعر بالتعب، لكنه كان يشعر بالفخر أيضًا، رفع الستار الذي كانت «لوتس» تمشي خلفه بملابسها الحريرية، وعندما شاهدته صرخت من الأتربة العالقة بثيابه ووجلت عندما اقترب منها. لكنه ضحك وقال: «الآن عرفت أن سيدك ما هو إلا فلاح، وأنك زوجة فلاح.»

لكنها استعادت تماسكها وقالت: «كن أنت كما تريد لكني لست زوجة فلاح.» فضحك وابتعد عنها ببساطة، كان يشعر بأنه كما لو كان بعيدًا عن وطنه لوقت طويل، وعليه أن يفعل أشياءً كثيرة بسرعة.

عندما كان يعود للبيت في وقت الظهيرة وفي الليل، كان يأكل جيدًا من الطعام الذي تعده له «أولين» وهو خبز وأرز جيد. وكانت «لوتس» تصيح عندما تشعر بعودته فكان يضحك ولا يعيرها اهتمامًا، فقد شفي من حبه لها.

وهكذا اتخذت هاتان الزوجتان موقعهما في بيته، «لوتس»

للمرح و«أولين» زوجة تعمل وأم حملت أولاده، كما أنها تطعمه هو وأباه والأطفال.

● **فخر واعتزاز:**

كان مما يسعد «وانج لانج» أن رجال القرية كانوا يحسدونه على زوجته في البيت الداخلي، كما أنهم كانوا يحترمونه ويعاملونه كشخص يعيش في بيت عظيم.

إن «وانج لانج» مشغول الآن بالعديد من الأشياء، فقد جاءت الأمطار في وقتها، ومر الوقت وجاء الشتاء، ثم حان موعد الحصاد. وذهب بالمحصول إلى الأسواق بعد أن احتفظ بالحبوب حتى ارتفعت الأسعار، واصطحب معه هذه المرة ابنه الأكبر.

يشعر «وانج لانج» الآن بفخر لأن ابنه يستطيع أن يمسك الورق ويقرأ ما فيه أمام الناس بصوت عال، ويضع الريشة في الحبر ويكتب بها على الورق ما يستطيع الآخرون قراءته، فوقف يشاهد ابنه بفخر وهو يكتب.

وعندما انتهى كل شيء وكتب الابن اسم أبيه في عقد بيع الحبوب، وبعد استلام النقود، عاد كليهما للبيت معًا سيرًا على الأقدام، أب وابنه، رأي «وانج لانج» أن عليه أن يفعل واجبه تجاه ابنه ويخطب له فتاة مناسبة ويزوجه.

جلس «وانج لانج» يفكر في فتاة يزوجها لابنه، لم يكن الأمر سهلًا، فهو لا يعرف أي فتاة مناسبة، كما لم يسمع عن أي منهن في المقهى. ولم يسمع عن أغنياء في المدينة ولديهن بنات في سن الزواج. جاء الربيع ونمت أشجار الصفصاف واخضرت وتحولت أشجار الخوخ إلى اللون القرنفلي. ولا يزال «وانج لانج» يبحث عمن يزوجها لابنه.

● **شاب متمرد:**

عاد الربيع بأيامه الطويلة الدافئة المعطرة برائحة البرقوق والكريز. كما تغير الابن الأكبر لـ«وانج لانج» وأصبح رجلًا، فهو يعارض ويجادل، ويأكل هذا ولا يأكل ذاك ويحرص على كتبه، لكن عندما يغضب «وانج لانج» كان ينفجر باكيًا ويخرج من الغرفة. بالإضافة إلى أنه بدأ يكره أستاذه وكان لا يذهب إلى المدرسة إلا إذا صاح «وانج لانج» أو حتى ضربه. كما أنه كان يقضي أحيانًا عدة أيام يتسكع في شوارع المدينة.

وأخيرًا، ومن شدة غضبه، ضرب «وانج لانج» ابنه حتى أن «أولين» سمعت واندفعت من المطبخ وحالت بين الأب وابنه. وعندما ذهب الولد، وقفت «أولين» أمام «وانج لانج»، فقال لها: «قولي ما تريدين يا أم ابني ؟»

قالت: «ليس من المفيد لك أن تضرب الشاب كما تفعل الآن. لقد رأيت ذلك يحدث مع أبناء السيد الكبير في القصر، لكن عندما حان الوقت، تمكن السيد الكبير من تزويجهم.» رد «وانج لانج»: «لا حاجة لنا بأن نكون هكذا، عندما كنت شابًا لم أكن أبكي ولم يكن مزاجي متقلبًا هكذا.» قالت «أولين» ببطء: «أنا لا أنظر إلى الأمر بهذه النظرة عندما يختص الموضوع بشاب، أنت تعمل في الأرض، لكنه شاب صغير وعاطل يجلس بالبيت.»

اندهش «وانج لانج» بعد أن فكر لفترة قصيرة، فقد علم أن ما تقوله «أولين» هو الحق، فشعر في داخله بالزهو لأنه عنده ولد مثل هذا الولد، فقال لـ«أولين»: «إذا كان هذا يشبهه بأولاد الأغنياء، فالأمر مختلف، سأخطب له ونزوجه مبكرًا، هذا هو ما سنفعله.» ثم نهض ودخل إلى البيت الداخلي.

23 زيجة مناسبة للابن

لاحظت «لوتس» الآن أن «وانج لانج» يفكر في أشياء أخرى غير جمالها، فمطت شفتيها غاضبة وقالت: «لو أعلم أنك بعد عام واحد ستنظر إلي ولا تراني ما تزوجتك.» وأدارت رأسها بعيدًا عنه وهي تتحدث، ونظرت إليه بطرف عينها، فضحك وقال: «لا يستطيع المرء دائمًا أن يفكر في الجوهرة التي يضعها في معطفه، إلا أنه لا يحتمل ضياعها. أنا أفكر هذه الأيام في ابني، لابد أن نزوجه، وأنا لا أجد من أزوجه منها.» كانت «لوتس» قد لاحظت أن ابنه قد كبر وكانت تنظر إليه بسرور، فردت: «هناك رجل أعرفه، كان عادة يتحدث عن ابنته ويقول إنها تشبهني، صغيرة وجميلة، إلا أنها لا تزال طفلة.»

سألها «وانج لانج»: «من يكون ؟ وماذا يعمل ؟»

فأجابت: «إنه رجل طيب، لكني لا أعرف ماذا يعمل، إلا أنني أعتقد أنه يعمل في سوق الغلال. لكني سأسأل «كوكو» فهي تعرف كل شيء عن الرجال وأموالهم.»

ثم صفقت بيديها فجاءت «كوكو» مهرولة من المطبخ، فسألتها «لوتس» عن اسم الرجل، فأجابت فورًا قائلة: «إنه «ليو» تاجر الحبوب، إن متجره يقع في شارع الجسر الحجري.»

وقبل أن تكمل كلامها، ضرب «وانج لانج» يديه معًا وقال: «إنه المكان الذي أبيع في محصولي، هذه فكرة جيدة، ويمكن تنفيذها بالأكيد.» فهو يرى أن من حسن الطالع أن يزوج ابنه من ابنة من يشتري منه الحبوب.

كانت «كوكو» تشم رائحة المال في كل ما يدور حولها من أمور، فقالت بسرعة: «أنا في خدمة سيدي.»

كان «وانج لانج» لا يزال متشككًا، لكن «لوتس» قالت بسعادة: «تذهب كوكو إلى «ليو» وتطلب منه الفتاة، وحين ينتهي الأمر على ما يرام، تأخذ أجر الخاطبة.»

لكن «وانج لانج» قال: «لا أنا لم اتخذ قرارًا بعد. لابد أن أفكر في الأمر لعدة أيام ثم أخبرك بما أفعل.»

كان عليه أن يفكر عدة أيام لولا أنه لاحظ ذات يوم أن ابنه عاد إلى البيت قبل الفجر وهو مخمور، فوجهه أحمر وساخن من شرب الخمر، كما أنه تعثر وهو يمشي وسقط على الأرض.

خاف «وانج لانج» ونادى على «أولين» فحملا الشاب معًا ووضعته «أولين» في فراشها، كان الشاب نائمًا، وثقيلًا كالموتى.

دخل «وانج لانج» بعد ذلك إلى الغرفة التي ينام فيها ابناه الكبيران، وسأل الولد الثاني: «أين قضى أخوك هذه الليلة ؟» خاف الولد وارتعش وقال: «أنا لا أعرف أين كان، ولكني أعرف أنه خرج مع ابن عمك.»

انطلق «وانج لانج» غاضبًا إلى غرفة عمه، نسي أنه عمه وتذكر فقط أنه أب لشاب عاطل غير مؤدب أفسد ابنه، فصاح: «لقد آويت في بيتي مجموعة من الأفاعي التي لم تحفظ الجميل.» كان عمه يتناول طعام الإفطار لأنه لا يستيقظ إلا بعد الظهر، فقال بتكاسل: «ماذا جرى ؟»

أخبره «وانج لانج» بما حدث وعندما ضحك عمه، رد عليه «وانج لانج»: «الآن، اخرجوا من بيتي أنت وأسرتك، أحرق البيت بالكامل ولا آويكم فيه.»

● **مفاجأة متوقعة:**

لاحظ «وانج لانج» أن عمه لم يهتم بما يقول، بل إنه تقدم رافعًا يده ثم استدار وقال: «اطردني خارج البيت إن جرؤت على ذلك.» وفتح معطفه ليرى «وانج لانج» ما بداخله .

تحجر «وانج لانج» في مكانه حيث رأي لحية مستعارة حمراء وشارة حمراء، وكانت هذه هي علامة عصابة من اللصوص تعيش في الشمال الغربي، وقد احرقوا الكثير من البيوت وربطوا الكثير من الفلاحين الطيبين على أبواب بيوتهم بالحبال، وكان الناس يجدونهم في صباح اليوم التالي إما موتى أو مجانين. حملق «وانج لانج» في عمه وابتعد دون أن ينطق بكلمة، فسمع صوت ضحكة عمه الخافتة وهو ينحني على طبقه يأكل منه الأرز.

والآن، يدخل عم «وانج لانج» ويخرج من البيت مثلما كان في السابق، ولا يستطيع «وانج لانج» أن ينطق سوى بكلمات مؤدبة خوفًا مما يمكن أن يفعله عمه به. الآن فقط علم لماذا ظل آمنًا بينما تعرض آخرون للسرقة، وسيظل آمنًا طالما يطعم ثلاثة من أفراد عائلة عمه في بيته.

لم يحدث عمه عن مغادرة البيت بعد ذلك، وكان يعطي زوجة عمه وابن عمه قطعًا من الفضة. لكنه راقب ابنه وأمره ألا يغادر البيت بعد مغيب الشمس، وذلك بالرغم من أن ابنه غضب، فكان يصفع أخوته الصغار لا لشيء سوى سوء مزاجه وعصبيته. وهكذا أصبح «وانج لانج» محاطًا بالمشكلات.

ويبدو أن هذه المشكلات لم تكن كافية، فقد عادت «كوكو» من عند تاجر الغلال قائلة بأنه يرى أن البنت لا تزال طفلة ولابد من الانتظار

ثلاث سنوات. لم يتقبل «وانج لانج» فكرة الانتظار لمدة ثلاث سنوات يبقى فيها ابنه عاطلًا وعصبيًا. فنادى على «أولين» أثناء تناوله للطعام وقال: «فلنخطب لبقية إخوته بمجرد أن يصبح ذلك ممكنًا، فكلما كان ذلك مبكرًا كلما كان أفضل.»

في صباح اليوم التالي نزع ثوبه وحذاءه مثلما يفعل عندما تصبح أمور بيته معقدة، ثم أخذ فأسًا واتجه إلى الحقول.

● **الجراد ... خطر داهم:**

ذهب «وانج لانج» إلى أرضه بشكل شبه يومي. كان يود الشفاء من مشكلاته الخاصة، وذات يوم جاءت من الجنوب سحابة صغيرة، نظر إليها الناس والرعب يملأهم. كانوا يتابعونها باهتمام إلى أن تأكدوا من صحة مخاوفهم، فقد جاء الجراد من الجنوب ليأكل كل ما هو مزروع بالأرض، ثم أسقطت الرياح شيئًا على الأرض، فإذا بها جرادة ميتة.

نسي «وانج لانج» جميع مشكلاته، واندفع بين جموع الفلاحين الخائفين وصاح فيهم: «سنحارب هؤلاء الأعداء القادمين من السماء، من أجل إنقاذ أرضنا الطيبة.» إلا أن الجراد انتشر فوق مساحة كبيرة من الأرض.

نادى «وانج لانج» على عماله وعلى «شينج» الذي وقف صامتًا

ومستعدًا إلى جواره. حيث أشعلوا النيران في حقول صغيرة بما فيها من قمح جيد على وشك الحصاد، وحفروا خنادق مائية صبوا فيها الماء من الآبار، عملوا بلا توقف أو نوم. كانت «أولين» تحضر لهم الطعام وكانت النساء يحضرن الطعام لأزواجهن، كان الرجال يأكلون وهم واقفون في الحقول أثناء العمل ليلًا ونهارًا.

ثم أظلمت السماء وامتلأ الهواء بأصوات أجنحة الجراد تتخبط في بعضها البعض، وبدأ الجراد يسقط على الأرض، يطير الجراد من حقل ما ويتركه كما هو دون أن يمسه، ويهبط على حقل آخر فيقضي على ما فيه ويتركه أرضًا خالية. وكان «وانج لانج» غاضبًا يضرب في الجراد ويدوسه بقدميه وفعل الرجال مثله، كما سقط الجراد في النار التي أشعلها الفلاحون، وسقط بعضه ميتًا في ماء الخنادق التي حفرها الرجال. وماتت ملايين الحشرات إلا أن هذا العدد لا يمثل أي شيء بالنسبة لما تبقى.

نال «وانج لانج» مكافأته عن كل ما فعل، فقد سَلمَت أفضل حقوله وبها ما يمكن حصاده من القمح، كما نجت حقول الأرز التي زرعها، فكان راضيًا بذلك. كان كثير من الناس يطهون الجراد ويأكلونه، إلا أن «وانج لانج» لم يفعل ذلك لأنه يعتقد أن الجراد خبيث يخرب أرضه.

استمر هجوم الجراد سبعة أيام لم يفكر فيها في شيء سوى الأرض، كان يقول لنفسه بهدوء: «لكل منا مشكلاته ولابد أن أتعامل مع مشكلاتي بأفضل طريقة ممكنة. عمي أكبر مني في السن ولابد أنه سيموت، والسنوات الثلاث ستمر بسرعة على ولدي، ليس لي أن أحمل الهم.» ثم حصد قمحه وعمل في حقول الأرز من جديد، ثم جاء الصيف.

24 المشكلات تتفاقم

وفي يوم ما وبعدما عاد «وانج لانج» من أرضه وقت الظهر، جاءه ابنه الأكبر وقال: «أبي، هل علي أن أستمر في الدراسة؟ لم يعد لدى المدرس العجوز بالمدينة ما يمكن أن يعلمني إياه.»

وضع «وانج لانج» فوطة في حوض ماء ساخن ثم امسكها وهي يتصاعد منها البخار على وجهه وقال: «إذن ... ما العمل ؟»

تردد الشاب إلا أنه أكمل حديثه: «إذا كنت أود التعلم جيدًا، فليس لي سوى أن أذهب إلى المدينة في الجنوب لأدخل إحدى المدارس الكبرى فأدرس هناك.»

دعك «وانج لانج» وجهه بالفوطة ورد بحدة: «ما هذا الهراء ؟ أنا أرى أنك لا تستطيع السفر، فقد تعلمت بما فيه الكفاية في منطقتنا هذه.»

إلا أن الشاب ظل واقفًا ينظر إلى والده بحنق وقال: «لن أظل في هذا البيت الكئيب أعامل معاملة الأطفال، سأخرج منه وأرى أناسًا آخرين ومناطق جديدة.»

نسي «وانج لانج» افتخاره بأن ابنه يقرأ ويكتب وأنه ماهر في مطالعة الكتب وصاح فيه: «اذهب الآن إلى الأرض وأدعك جسدك في طميها الطيب حتى لا يظنك الرجال امرأة واعمل قليلًا في مقابل ما تأكل من أرز.» وقف الشاب ونظر إلى والده بغيظ، إلا أن «وانج لانج» لم يلتفت ليرى ما فعله الشاب.

وعندما ذهب «وانج لانج» إلى الغرفة الداخلية تلك الليلة وجلس بجانب «لوتس» على فراشها، وكانت «كوكو» تحرك المروحة بجانبها، فقالت له «لوتس» ببرود: «ابنك الكبير يريد أن يذهب.» تذكر «وانج لانج» غضبه على ابنه فقال بحدة: «وماذا يعنيك في ذلك ؟ وماذا قال لك ... أنا لا أتركه يأتي إلى هنا في مثل هذه السن ؟»

لكن «لوتس» ردت بسرعة: «لا ... لا ... لم يقل لي شيئًا، «كوكو» أخبرتني بالأمر.» كان «وانج لانج» يفكر فقط في غضبه على ابنه فقال: «لا ... لن يذهب ... لن أنفق أموالي هباء. لن أسمح له بالحديث عن ذلك مرة أخرى.» مرت عدة أيام ولم يدر أي حديث عن الأمر، وبدا الشاب وكأنه راض فجأة، إلا أنه توقف عن الذهاب إلى المدرسة وسمح له «وانج لانج» بذلك.

كان على «وانج لانج» أن يكون راضيًا حيث عاد الهدوء إلى حياته واقتنع ابنه بالأمر، إلا أنه كان يجلس بمفرده ذات ليلة يحسب على أصابعه ما يمكن بيعه من الذرة وما يمكن بيعه من الأرز، فدخلت «أولين» إلى الغرفة برفق.

أصبحت «أولين» نحيفة جدًا مع مرور السنين وغارت عينيها، وإذا سُئلت عن حالها كانت تقول: «نيران في أحشائي.» نهضت في الفجر وقامت بأعمالها الصباحية المعتادة، كان «وانج لانج» ينظر إليها كما

ينظر إلى المنضدة أو الكرسي. كانت لا تتكلم وتعمل في إعداد الطعام والتنظيف حتى في الشتاء عندما يكون الماء باردًا، إلا أن «وانج لانج» لم يفكر أبدًا أن يقول: «لماذا لا تستأجرين خادمة مما أوفره من فضة؟» فلم يكن يرى أن هناك أي حاجة لذلك على الرغم من أنه يستأجر العمال لأرضه.

● **خطر واضح :**

في تلك الليلة، وبينما كان يجلس بمفرده، وقفت «أولين» أمامه وقالت: «عندي ما أقوله لك. نظر إليها بدهشة وقال: «قولي ما تريدين.» قالت بصوت حاد هامس: «ابنك اعتاد الذهاب إلى البيت الداخلي للحديث. عندما تبتعد، يذهب هو.»

تعجب «وانج لانج» فقالت: «حسنًا .. يا سيدي تعالى إلى البيت فجأة.» ثم واصلت بعد صمت قليل: «من الأفضل لك أن ترسله إلى الجنوب.» ثم خرجت في صمت وتركته جالسًا.

قال في نفسه، هذه المرأة غيورة، لكنه تذكر كيف أن «لوتس» كانت تعلم برغبة ابنه في السفر، فقال في نفسه: «سأتأكد بنفسي.»

خرج كعادته ليتابع عماله، وصاح بصوت يسمعه جميع من في البيت: «سأذهب إلى الأرض التي بجانب المصرف عند المدينة، ولن أعود مبكرًا.» إلا أنه مشي إلى منتصف الطريق ثم جلس يفكر: «هل أعود ؟»

حل عليه الغضب فعاد إلى البيت من طريق مختلف، ودخل البيت يسترق السمع خلف الستائر المؤدية إلى البيت الداخلي، فسمع صوت خافت لرجل، إنه صوت ابنه.

● **ثورة عارمة وضرب ودماء:**

غضب «وانـج لانـج» غضبًا لم يشعر به في حياته، فخرج واختار عودًا من الخيزران الرفيع وهذبه. ثم دخل إلى حيث وجد ابنه واقفًا في صحن البيت الداخلي يتحدث إلى «لوتس» التي كانت تجلس على كرسي صغير عند حافة حوض الأسماك، لم يشعر كلاهما به، إلا أن «كوكو» رأته فارتجفت.

انهال «وانـج لانـج» على ابنه ضربًا حتى سال منه الدم، وعندما صرخت «لوتس» وسحبته من ذراعه انهال عليها هي أيضًا بالضرب، ثم ألقى بالخيزران وقال لابنه وهو يلهث: «الآن، عد إلى غرفتك ولا تخرج منها حتى أبت في أمرك وإلا قتلتك.»

نهض ابنه دون أن ينطق، ومضى إلى حيث أمره والده.

جلس «وانـج لانـج» على الكرسي الذي كانت «لوتس» تجلس عليه وكان يلهث بشدة. لم يقترب منه أحد، ظل على هذه الحال حتى هدأ وزال غضبه.

نهض «وانـج لانـج» وهو متعب وخرج، وعندما مر بجوار غرفة ابنه قال دون أن يدخل: «اجمع كل حاجياتك في الصندوق، غدًا تسافر إلى الجنوب حيث تريد ولا تعود إلا عندما أرسل إليك.»

ثم استمر في سيره حيث مر بـ«أولين» تخيط بعض ثيابه، كانت قد سمعت الضرب والصراخ ولم تعلق على ذلك. خرج «وانـج لانـج» إلى حقوله وقت الظهيرة وهو متعب كما لو كان يعمل طوال اليوم.

25 عمل للابن وزواج للبنت

لم يكن الابن الثاني لـ«وانج لانج» يشبه ابنه الأكبر بطريقة توحي بأنهما نشئا في نفس البيت إطلاقًا. كان فيه من الصفات ما يجعل «وانج لانج» يتذكر والده، فقال «وانج لانج» في نفسه: «إن هذا الولد سيكون تاجرًا جيدًا، سأخرجه من المدرسة كي أرى ما إذا كان من الممكن أن يتدرب في سوق الغلال.» لذلك فقد قال لـ«كوكو» يومًا ما: «اذهبي الآن لوالد خطيبة ابني واخبريه أنى أريد أن أحدثه في أمر ما.»

ذهبت «كوكو» وعادت لتقول: «إنه مستعد لمقابلتك متى رغبت في ذلك، يمكنك أن تتناول شرابًا معه ظهرًا اليوم أو أن يأتي لك هو إلى هنا.» لذلك اغتسل «وانج لانج» وارتدى ثوبه الحريري وانطلق عبر الحقول. ذهب أولًا إلى شارع الكباري كما أخبرته «كوكو» وبعد الكويري طرق على بوابة البيت الثاني بيده.

فُتح الباب فورًا ووقفت أمامه خادمة وسألته عن اسمه، ثم تفحصته جيدًا عندما قال اسمه وقادته إلى داخل البيت حيث يعيش الرجال، حملقت فيه مرة أخرى عندما علمت أنه أبو خطيب ابنة سيد البيت. ثم خرجت لتنادي سيدها.

تلفت «وانج لانج» حوله بعناية وشعر بسعادة عندما رأى علامات الحياة الطيبة، إلا أنه ليس ثراء فاحشًا. إنه لا يريد لزوجة ابنه أن تكون غنية جدًا حتى لا تكون متكبرة وغير مطيعة وتطلب ذاك النوع من الطعام أو الملبس أو غيره أو تغير قلب ابنه نحو والديه.

سمع صوت خطوات ثقيلة فجأة ودخل رجل سمين فقام «وانج لانج» وانحنى، فانحنى الرجل أيضًا. كان كلاهما يتفحص الآخر خلسة. كانا يحترمان بعضهما البعض لأنهما من الأغنياء المرفهين. جلسا معًا وتناولا مشروبًا قدمته خادمة، وتحدثا بهدوء في أمور كثيرة. وأخيرًا قال «وانج لانج»: «لقد جئت في أمر أود عرضه عليك فإما أن يعجبك أو نتحدث في موضوع آخر، فإذا كنت بحاجة إلى من يعمل معك في محلك الكبير، فإن ابني الثاني موجود وهو ذكي، أما إذا كنت في غير حاجة إليه، نتحدث في موضوع آخر.»

رد التاجر بترحيب ملحوظ: «أنا فعلًا بحاجة إلى شاب ذكي يعمل معي إذا كان يقرأ ويكتب.» فرد «وانج لانج» بفخر: «لقد تعلم ولداي الاثنان تعليمًا جيدًا.» فرد التاجر «ليو»: «إذن اجعله يأتي إلى العمل وقتما يريد.»

عند ذلك نهض «وانج لانج» وهو مسرور وضحك وقال: «إننا الآن أصدقاء، أليس لديك ابن نزوجه من ابنتي الصغيرة ؟» فضحك التاجر السمين ذو الصحة الجيدة بشدة وقال: «ابني الثاني عنده عشر سنوات، لم أخطب له بالطبع، كم عمر البنت ؟» فضحك «وانج لانج» مرة ثانية وقال: «ستكمل عامها العاشر بعد عدة أشهر، إنها جميلة مثل الزهرة.»

ضحك الرجلان معًا ورأى «وانج لانج» أنه ليس من اللائق مناقشة الأمر بتفاصيل أكثر من ذلك وجهًا لوجه. إلا أنه خرج وهو مسرور. نظر إلى ابنته عندما دخل إلى البيت، فرآها طفلة جميلة، كما أن أمها تربط قدميها جيدًا، لذلك فهي تمشي بخطوات رشيقة صغيرة.

لكن «وانج لانج» لاحظ أن عينيها دامعتان وأن آثار الدموع على وجنتيها، كما أن وجهها مصفر إلى حد ما بطريقة لا تتناسب مع سنها،

فجذبها إليه من يدها الصغيرة وقال: «لماذا بكيت؟» فطأطأت رأسها وقالت في خجل وشبه تذمر: «لأن أمي تلف القماش بشدة حول قدمي يومًا عن يوم، فلا أستطيع النوم ليلًا.» فقال متعجبًا: «لكني لم أسمعك وأنت تبكين.»

ردت بسذاجة: «لا ... أمي قالت أن علىّ ألا أبكي بصوت عال لأنك رقيق القلب ستحزن لتألمي فتفك قدمي، ثم يكرهني زوجي لأن قدماي كبيرتان، تمامًا مثلما تكره أنت أمي.»

تألم «وانج لانج» بشدة لذلك، فقد أخبرت «أولين» الطفلة بأنه لا يحبها وهي أمها. فرد بسرعة: «حسن ... اليوم سمعت عن زوج جميل سيتقدم إليك، وسنرى إذا كانت كوكو يمكنها إتمام هذه الزيجة.»

ابتسمت الطفلة وأحنت رأسها خجلًا، ثم قال «وانج لانج» لـ«كوكو» ذلك المساء:»إذهبي لنرى ما إذا كان هذا الزواج من الممكن إتمامه أم لا؟»

استيقظ «وانج لانج» أثناء الليل وهو يفكر في «أولين» وإخلاصها وخدمتها له. ثم فكر فيما قالته الطفلة فحزن، وذلك لأن «أولين» قد أدركت الحقيقة التي بداخله برغم كل محاولات التعتيم.

بدأ «وانج لانج» يفكر في «أولين» لأول مرة في حياته. كان ينظر إليها وهو يشعر بحزن غريب، حيث لاحظ أنها بدأت تنحف وأن جلدها جاف وأصفر. لم يفكر من قبل في سبب عدم قدرتها في الآونة الخيرة على المشي بسرعة ولاحظ الآن فقط أنه يفكر في ذلك. تذكر أنه سبق أن سمع أنينها أحيانًا في الصباح عندما تنهض من فراشها وعندما تنحني لتضع الحطب في الموقد. إنه ينظر إليها الآن وإلى الانتفاخ

الغريب الموجود بجسدها فيتألم ويقول لنفسه: «ليست غلطتي أنني لم أحبها. ثم يقول ليطمئن نفسه: «أنا لم أضربها، كما أنني أعطيها الفضة عندما تطلبها.»

إلا أنه لم ينس ما قالته الطفلة، وظل ينظر إليها وهي تحضر طعامه أو وهي تتحرك حوله، وذات يوم وبينما كانت منحنية تمسح الأرض بعد تناولهم للطعام لاحظ أن وجهها قد امتقع بفعل الألم المفاجئ ببطنها، كما أنها تلهث ببطء، فسألها بحدة: «ما هذا ؟» فأدارت وجهها بعيدًا عنه وقالت: «إنه الألم القديم في أمعائي.» فظل يحملق فيها ثم قال لطفلته الصغيرة: «خذي الممسحة ونظفي أنت لأن أمك مريضة.» ثم قال لـ «أولين» بعطف لم تعهده منذ سنوات طوال: «اذهبي واستريحي في فراشك، وسأطلب من البنت أن تحضر لك ماء ساخنًا، لا تتركي الفراش.»

أطاعته ببطء وبدون أن تجيب، وأخيرًا بقيت في الفراش وهي تتألم بصوت خفيض. ظل يسمع صوت تألمها إلى أن أصبح لا يستطيع الاحتمال، فخرج إلى المدينة يسأل عن عيادة طبيب.

وجد الطبيب يجلس بلا عمل ويتناول القهوة، وعندما وصف له أعراض مرض زوجته، فتح درجًا واخرج منه حزمة ملفوفة في قماش أسود وقال: «سآتي معك.»

• مرض أولين:

وعندما وصلا معًا إلى فراش «أولين» كانت قد راحت في نوم والعرق يغطي وجهها وجبهتها، فهز الطبيب رأسه عندما رآها. وقال: «إنها حالة

متدهورة، إذا لم تكن بحاجة إلى وعد بشفائها[1] فإني أعطيك وصفة من أعشاب تغلى معًا ثم تشربها. أما إذا كنتم تريدون ضمان الشفاء التام، فهذا يتكلف خمسمائة قطعة من الفضة.

عندما سمعت «اولين» هذه الكلمات «خمسمائة قطعة من الفضة» فاقت فجأة من غفوتها وقالت بصوت واهن: «لا ... حياتي لا تساوي كل هذا. يمكن شراء قطعة جيدة من الأرض بهذا المبلغ.»

عندما سمعها «وانج لانج» تقول ذلك استرجع كل آلامه ورد عليها بعنف: «لا أحب أن يموت من في بيتي، سأدفع الفضة.»

عندما سمعه الطبيب العجوز يقول ذلك لمعت عيناه من الطمع، لكنه كان يعرف القانون إذا لم يفي بوعده وماتت المرأة، لذلك قال: «لا... يبدو أنني قد أخطأت عندما نظرت إلى لون بياض عينيها. المطلوب خمسة آلاف قطعة من الفضة حتى يكون العلاج مضمونًا.»

نظر «وانج لانج» إلى الطبيب وهو صامت وحزين فقد فهم ما قصده الطبيب. ليس عنده كل هذه الفضة حتى لو باع كل أرضه فلن يتمكن من توفير الفضة المطلوبة، وهذا الموقف يعني ببساطة أن الطبيب يرى أن «أولين» ستموت لا محالة.

خرج «وانج لانج» مع الطبيب وأعطاه عشر قطع من الفضة، وعندما انصرف الطبيب دخل «وانج لانج» إلى المطبخ المظلم حيث قضت «أولين» معظم وقتها ونظر حوله إلى الجدران المسودة ثم بكى.

(1) كان من عادة الصينيين أن يعطوا الطبيب أجره عند الشفاء أو أن يشترطوا ذلك. (المترجم)

26 أفراح وأحزان

لم تمت «أولين» فجأة، بل رقدت في فراشها شبه محتضرة طوال شهور الشتاء. ولأول مرة عرف «وانج لانج» وأبناؤه قيمتها بالبيت، وكيف كانت تعمل على راحتهم جميعًا دون أن يشعروا. لا أحد منهم الآن يعرف كيفية إشعال الحشائش والمحافظة على النيران مشتعلة في الموقد، لا أحد يعرف ما إذا كان زيت السمسم أو زيت الذرة هو الأفضل لطبخ هذا الخضار أو ذاك. وتظل بقايا الطعام وكسرات الخبز بجانب المائدة لا يرفعها أحد إلى أن يتضجر «وانج لانج» من رائحتها فيأتي بكلب من صحن الدار ليأكها أو يطلب من طفلته الصغيرة أن ترفعها.

كان الابن الشاب يحاول ملء الفراغ الذي تركته أمه عند جده المتعب الذي لم يعرف من «وانج لانج» لماذا لم لا تقدم «أولين» له الشاي والماء الساخن في الصباح. وأخيرًا قاده «وانج لانج» إلى غرفة «أولين» حيث الفراش الذي ترقد عليه. بكى الرجل الكهل لأنه بالكاد استطاع أن يرى أن مكروها أصابها.

لم يتبق سوى الصغيرة البلهاء التي لا تدري بما يدور حولها، فهي تبتسم وتلعب بقطعة من القماش. لكن لابد من أن يهتم بها أحد فيأخذها لتنام ليلًا ويطعمها ويجلسها في الشمس أو يدخلها إلى البيت إن أمطرت الدنيا. ولابد أن يتذكر أي منهم أن يفعل ذلك، إلا أن «وانج لانج» نفسه كان ينسى ذلك. حتى أنهم نسوها خارج البيت ليلة كاملة، فغضب «وانج لانج» وتشاجر مع ابنه وابنته لأنهما نسيا أختهما المسكينة. لكنه تذكر أنهم لازالوا صغارًا يحاولون القيام بدور أمهم دون قدرة حقيقية على ذلك. بدأ بعد ذلك يعتني بنفسه بالطفلة البلهاء صباحًا ومساء.

● **طول المرض واستمرار الآلام:**

وخلال جميع أشهر الشتاء المظلمة التي كانت «أولين» ترقد فيها وهي تحتضر، لم يعر «وانج لانج» الأرض أي اهتمام. فقد أحال جميع أعمال الشتاء وأحوال العمال إلى «شينج»، فعمل «شينج» بإخلاص وكان يأتي في الصباح والمساء عند باب غرفة «أولين» ليسأل عن أحوالها، وأخيرًا لم يتحمل «وانج لانج» ذلك لأنها لا تتحسن، لذلك أخبر «شينج» ألا يسأل عنها ثانية، فيكفي أنه يؤدي عمله خير أداء. قضى «وانج لانج» معظم أيام الشتاء المظلمة وهو جالس بجانب فراش «أولين»، فإذا شعرت بالبرد كان يحضر الحطب المشتعل بقرب فراشها ليدفئها، لكنها كانت تتذمر كل مرة قائلة بصوت خافت: «هذا مكلف جدًا.» وبعد أن تكرر ذلك كثيرًا، لم يحتمل «وانج لانج» فانفجر صائحًا: «لا أستطيع التحمل. إني مستعد لبيع كل الأرض لو أن هذا يشفيك.»

ابتسمت «أولين» وقالت: «لا ... أنا لن أدعك تفعل ذلك، فأنا سأموت في وقت ما على أي حال. لكن الأرض ستبقى من بعدي.» لم يكن يحب أن تتحدث عن موتها، لذلك تركها وخرج وهي تتحدث.

● **نعوش ... وليس نعش واحد:**

إلا أنه كان يعلم أنها ستموت لا محالة وعليه أن يتذكر واجباته، فذهب ذات يوم إلى محل صانع النعوش بالمدينة وظل يعاين النعوش الجاهزة الموضوعة عنده، ثم اختار واحدًا جيدًا لونه أسود مصنوع من خشب ثقيل صلب. قال له النجار بعد أن انتظر حتى اختار ما يريد: «إذا أخذت اثنين أخصم لك ثلث الثمن، لماذا لا تشتري واحدًا لنفسك وتطمئن من الآن.» فرد «وانج لانج»: «لا ... إن أولادي سيتولون الأمر.» ثم فكر «وانج لانج» وقال: «لكن أبي سوف يموت قريبًا أيضًا، لذلك سآخذ اثنين.» تعهد النجار بدهان النعشين بدهان أسود جيد وأرسلهما إلى بيت «وانج لانج». أخبر «وانج لانج» «أولين» بما فعل ففرحت لأنه استعد

لموتها. وهكذا ظل يجلس بجوارها ساعات طوال كل يوم، لم يكونا يتحدثان طويلًا لأنها كانت مجهدة بالإضافة إلى أنهما لم يعتادا الحديث معًا. وكانت تنسى أين هي وتتذمر أحيانًا بكلمات توحي بطفولتها، ولأول مرة يرى «وانج لانج» ما في قلبها من خلال جمل قصيرة مثل: «سأحمل اللحم إلى الباب فقط - أنا أعرف أنني قبيحة ولا يجب أن يراني السيد الكبير» ثم تقول وهي تلهث: «لا تضربوني - لن آكل من الصحون مرة أخرى.» وكانت دائمًا تكرر: «أعرف أنني قبيحة ولن يحبني أحد.»

لم يكن «وانج لانج» يستطيع التحمل عندما تقول ذلك، فكان يمسك يدها، يد من لم يحب. لذلك زادت شفقته عليها وكان يشترى لها طعامًا خاصًا، وكل ما كان يمكنه أن يفعل هو ألا ينسى «أولين».

كانت «أولين» تدرك ما حولها في بعض الأحيان، فنادت ذات مرة على «كوكو». فأرسل «وانج لانج» يستدعيها، استندت «أولين على ذراعيها المرتعشتين لتجلس في فراشها وقالت بوضوح: «لقد عشت أنت في البيت الكبير وظننت أنك جميلة، لكنى تزوجت من رجل وحملت أولاده، وأنت لا تزالين أمة.»

كانت «كوكو» على وشك أن ترد عليها بغضب، إلا أن «وانج لانج» اصطحبها إلى الخارج وهو يقول: «إنها لا تدرك ما تقول الآن.» وعندما عاد إلى الغرفة قالت له «أولين»: «بعد موتي لا تجعل هذه المرأة ولا سيدتها يدخلون إلى غرفتي أو يلمسوا حاجياتي، فإذا حدث ذلك سأرسل روحي إليكم لتلعنكم.» ثم غطت في نوم غير عادي.

لكن تحسنت «أولين» فجأة في أحد الأيام قبل رأس السنة فجلست في الفراش وطلبت شايًا تشربه، وعندما جاء «وانج لانج» قالت له: «العام الجديد على وشك البدء، ولا توجد أي كعكات أو حلوى جاهزة. أنا فكرت في أمر ما، لن أطلب ذلك من الأمة الموجودة في مطبخنا، لكني سأجعلك ترسل إلى خطيبة ابني الأكبر. لم أرها حتى الآن، وعندما تأتي

سأخبرها بما تفعل.» فرح «وانج لانج» بما أوتيت «أولين» من بعض القوة، وعلى الرغم من أنه لا يهتم بالاحتفال بهذا العام، إلا أنه أرسل «كوكو» إلى «ليو» تاجر الغلال، وبعد قليل قبل التاجر إرسال ابنته بعدما علم بأن «أولين» مريضة وقد تموت قبل نهاية الشتاء، كما أنه رأى أن ابنته قد وصلت لسن السادسة عشر أي أنها أكبر من كثيرات ذهبن إلى بيوت أزواجهن.

لم يكن هناك أي احتفال بسبب مرض «أولين»، حيث جاءت الفتاة على محفة في هدوء، ولم يأت معها سوى أمها وخادمة، وعادت الأم عندما تركت الفتاة مع «أولين»، إلا أن الخادمة بقيت لتخدم الفتاة.

لم يكن «وانج لانج» يتحدث مع الفتاة، حيث أن ذلك لم يكن من اللائق، إلا أنه كان مسرورًا لوجودها، حيث كانت تعرف واجباتها وتتحرك بالبيت بهدوء وعينها تنظر إلى الأرض. وكانت جميلة حقًا، إلا أنها ليست جميلة لدرجة تجعلها متكبرة. كانت كل تصرفاتها صائبة، حيث كانت تدخل إلى غرفة «أولين» وتعتني بشئونها وهذا أراح «وانج لانج» من تألمه بسبب زوجته، حيث توجد فتاة قريبة الآن من سريرها، كما أن «أولين» كانت راضية عن هذا الوضع.

ظلت «أولين راضية لمدة ثلاثة أيام أو أكثر، لكنها عندما سئلت عما تريد، قالت لـ «وانج لانج»: «لابد من شيء آخر قبل أن أموت.» فرد عليها بغضب: «أنت لا تسعديني بحديثك عن الموت.» فابتسمت ببطء وقالت: «لابد لي أن أموت، إنني أشعر بالموت ينتظر في أحشائي، لكني لن أموت قبل أن يعود ولدي الأكبر إلى البيت ويتزوج هذه الفتاة الطيبة. أريده أن يتزوج منها حتى أموت قريرة العين.»

لم يكن «وانج لانج» يفعل أي شيء يضايقها، وبالرغم من أنه كان يحتاج إلى وقت أطول للإعداد لعرس كبير لابنه الأكبر إلا أنه قال لها: «نعم .. سنفعل ذلك، سأرسل رجلا اليوم إلى الجنوب ليبحث عن ابني

ويعود به من أجل الزفاف، وعليك أن تعديني بالتوقف عن الكلام عن الموت والتماسك، فالبيت يبدو ككهف مليء بالوحوش بدونك.»

قال ذلك حتى يسعدها، فشعرت بالسعادة رغم أنها لم تتكلم بعد ذلك، بل اضطجعت وأغمضت عينيها وهي مبتسمة ابتسامة خافتة.

● **عودة الابن:**

أرسل «وانج لانج» رجلًا إلى ابنه في الجنوب وطلب من «كوكو» أن تعد لاحتفال يقام على أفضل وجه، فعليها أن تستدعي طباخين من مقهى المدينة لمساعدتها حيث قال: «أريد حفلا كتلك الحفلات التي قمت بإعدادها في البيت الكبير في الأيام الخوالي، وسأعطيك فضة أكثرَ مما تطلبين.»

ثم زار بيوت القرية ودعا كل من يعرفه، وذهب إلى المدينة ودعا كل من يعرفه هناك، وقال لعمه: «أدع من شئت إلى عرس ابني.» كان «وانج لانج» ودودًا مع عمه منذ أن عرف حقيقته، حيث أصبح يعامله كضيف مُكرّم. وفي الليلة السابقة ليوم العرس وصل الابن الأكبر لـ «وانج لانج» فنسي «وانج لانج» كل ما كان بينه وبين ابنه من مشكلات. فقد مر أكثر من عامين منذ آخر مرة رأى فيها ابنه، ولم يعد هذا الابن شابًا صغيرًا بل رجلًا طويلًا وذا صحة جيدة. فأخذه إلى غرفة أمه.

جلس الشاب بجوار أمه فاغرورقت عيناه بالدموع عندما رأى أمه على هذه الحال. فقالت «أولين» ببساطة: «سأراك تتزوج أولًا، ثم أموت.»

لا يجب على العروس أن يراها العريس قبل الزواج، فأخذتها «لوتس» إلى البيت الداخلي لتعدها للزواج، ولا أحد يمكن أن يجيد ذلك الإعداد سوى «لوتس» و«كوكو» وزوجة عم «وانج لانج». فأخذوا الفتاة صباح العرس وحمموها بكثير من الماء من رأسها إلى أخمص قدميها، وربطوا قدميها بقطع من القماش الجديد. وألبسوها ثيابًا جديدة أحضرتها معها من بيتها، ثم فستان العرس من الستان الأحمر. ثم وضعوا لها

لوازم الزينة والمساحيق، ثم وضعوا تاج العروس على رأسها وحذاء في قدميها، ولونوا أظافرها وعطروا راحتي يديها، وكانت الفتاة تخجل من كل ما يفعلوه.

● **حفل الزواج:**

جلس «وانج لانج» وعمه وأبوه والمدعوون في صحن الدار حتى جاءت الفتاة ومعها خادمتها وزوجة عم «وانج لانج». دخلت ورأسها منحن إلى الأمام كما لو كانت لا تود الزفاف. كان «وانج لانج» مسرورًا وقال في نفسه إنها فتاة مناسبة.

بعد ذلك، جاء ابن «وانج لانج» الأكبر وهو يرتدي رداء أحمر وسترة سوداء وكان شعره ناعمًا وحليق الذقن. وجاء خلفه أخواه. قال «وانج لانج» في نفسه: «آه لو استطاعت «أولين» أن تنهض من فراشها سيكون يومًا مباركًا.»

لاحظ «وانج لانج» أن ابنه نظر خلسة إلى الفتاة وشعر بالسعادة تمامًا مثلما فعل هو عند زواجه من «أولين» وقال في نفسه: «حسنًا فعلت، لقد اخترت له زوجة مناسبة.»

ثم انحنى العريس والعروس للجد ولـ «وانج لانج» ثم ذهبا إلى الغرفة التي ترقد فيها «أولين» ودخلا إليها. كانت «أولين» قد جعلتهم يلبسونها رداءها الأسود الجميل وجلست في الفراش عندما رأتهما قادمين، تقدم العروسان وانحنيا لها، فربتت على فراشها برفق وقالت: «اجلسا هنا وكلا واشربا معًا طعام وشراب العرس، جلسا معًا جنبًا إلى جنب وجاءت زوجة عم «وانج لانج» بالشراب والطعام، شرب كل منهما من كوبه أولًا ثم خلطا ما في الكوبين ثم شربا مرة ثانية، ثم أكل كل منهما الأرز من طبقه، ثم خلطا ما في الطبقين وأكلا منه. وهكذا أصبحا زوجين. ثم انحنيا مرة أخرى أمام «أولين» وأمام «وانج لانج» وخرجا معًا وانحنيا أمام كل المدعوين.

امتلأت كل الغرف والصالات بالموائد ورائحة الطعام والضحكات، وذلك لأن المدعوين قد جاءوا من كل مكان بعيد أو قريب. وقد أحضرت «كوكو» الطباخين من المدينة للإعداد للحفل قبل موعده بوقت كاف. أكل الجميع وشرب أكثر مما يحتمل، وكان الجميع يشعر بالسعادة.

جعلت «أولين» كل الأبواب وكل الستائر مفتوحة حتى تستطيع أن تسمع أصوات المدعوين وضحكاتهم وتشم رائحة الطعام، وكان «وانج لانج» يذهب إليها ليطمئن عليها من آن لآخر، كما طمأنها بأن كل شيء يسير كما كانت تود فشعرت بالرضا وهي تستمع إليه.

انتهى العُرس وخرج المدعوون وحل الظلام. وشعرت «أولين» بالتعب والإرهاق، فنادت على الزوجين الجديدين وقالت: «أنا الآن راضية. يا بني ... اعتن بأبيك وجدك. يا ابنتي ... اهتمي بزوجك وأبيه وجده ... وهذه البلهاء الموجودة في الصالة، وليس عليكم أي واجب تجاه أي أحد غيرهم.»

● **فراق الزوجة والأب معًا:**

كانت تقصد «لوتس» بالجملة الأخيرة، فهي لم تحدثها قط. ثم نسيت الجميع ورقدت تهذي. فأخرج «وانج لانج» الجميع وجلس بجوارها. كان ينظر إليها بينما هي تنام ثم تستيقظ. وبينما هو ينظر إليها نظرت إليه واتسعت عيناها وحملقت فيه، ثم حملقت فيه مرة أخرى كما لو كانت تفكر من يكون. ثم سقطت رأسها من على الوسادة المستديرة وماتت.

لم يستطع «وانج لانج» أن يظل بجانب «أولين» بعد أن ماتت. فأراد أن يشغل نفسه، فذهب إلى المدينة ليحضر من يتولون أمر النعش.

ثم طلب ملابس حداد له ولأولاده، كما صنع لهم أحذية من القماش الأبيض الخشن، فاللون الأبيض هو لون الحداد. كما وضعوا رباطًا أبيض عند كعوبهم، ووضعت نساء البيت ربطات بيضاء على رؤوسهن.

ويبدو أن الموت لم يشأ أن يترك بيت «وانج لانج»، فقد نام أبوه، وعندما جاءت الابنة الثانية لـ «وانج لانج» لتعطيه الشاي في الصباح وجدته على فراشه ورأسه متدل للخلف، وميت. صرخت البنت من الصدمة وركضت تصرخ وتنادي على أبيها ليأتي، فجاء «وانج لانج» ووجد أبيه على تلك الحال. فغسّله «وانج لانج» بنفسه ثم وضعه في النعش وقال: «سندفن اثنين من هذا المنزل في يوم واحد، سأقتطع جزءًا من أرضي أدفنهما فيه، وعندما أموت أدفن معهما.»

لقد فعل «وانج لانج» ما رأى أنه يجب عليه أن يفعله. وعندما حان وقت الدفن، دعا «وانج لانج» رجال الدين فدعوا للمتوفيين وجاء بطبول الجنازة أيضًا. ثم بعد أن انتهى رجال الدين، لبس «وانج لانج» ثوبًا أبيض من قماش خشن جدا وأعطى عمه وابن عمه ثيابًا مثله، وفعل نفس الشيء مع كل واحد من أبنائه وزوجة ابنه وابنته. وأمر بمحاف تأتي من المدينة لتحملهم، ولأول مرة يتحرك على أكتاف الرجال، لكنه خلف نعش «أولين». وتقدم عمه أولا ليسبقه خلف نعش أبيه. وحتى «لوتس» التي لم تكن تجرؤ على الظهور أمام «أولين» حال حياتها، ركبت محفة حتى تقوم بواجبها تجاه الزوجة الأولى لزوجها أمام الناس.

ذهب الجميع إلى المقبرة وهم ينتحبون ويبكون بصوت عال. وتبعهم «شينج» والعمال سيرًا على الأقدام وهم يرتدون الملابس البيضاء. لم يكن «وانج لانج» يبكي بصوت عال كبقية المشيعين، فلم يعد في عينيه أي دموع. ولكن عندما أهالوا التراب على المقابر استدار صامتًا وأعاد الكرسي وسار بمفرده إلى البيت. فخطرت له فكرة غريبة في ذلك الوقت، تمنى أن لو لم يأخذ اللؤلؤتين من «أولين» يوم أن كانت تغسل ثيابه في البركة، فهو لن يستطيع رؤية «لوتس» وهي تضعهما في أذنيها بعد الآن. استغرق في التفكير وهو عائد بمفرده وقال في نفسه: «لقد دفنت في أرضي النصف الأول الحلو من حياتي.» وبكى فجأة لوقت قليل، ثم جفف عينيه بظهر يده كما يفعل الأطفال.

27 الفيضان ... مرة أخرى

كان «وانج لانج» نادرًا ما يفكر في المحصول طوال تلك الفترة، فقد كان مشغولًا جدًا بالعرس ثم بالمأتم، لكن «شينج» جاءه ذات يوم وقال: «الآن انتهت الأفراح والأحزان، عندي ما أقوله لك.»

رد «وانج لانج»: «قل ما تريد، هذه الأيام لم أعد أشعر أن لدي أرض سوى تلك الأرض التي دفنت فيها الموتى.»

ظل «شينج» صامتًا لعدة دقائق احترامًا لـ «وانج لانج» وهو يتحدث بهذه الطريقة، ثم قال بصوت خافت: «يبدو أن هناك فيضانًا سيحدث لا قدر الله قريبًا، ويبدو أنه لم يسبق له مثيل، فقد فاض الماء على الأرض بالرغم من أن الصيف لم يأت بعد، ولا يزال الوقت مبكرًا لحدوث ذلك.

خرج «وانج لانج» إلى أرضه فرأى أن ما قاله «شينج» حقيقي. فكل الأراضي المجاورة للمجرى المائي كانت رطبة بسبب الماء الذي يتسرب من القاع ولذلك فقد فسد ما بها من قمح كان على وشك النضج.

وكان المجرى المائي أشبه ببحيرة والقنوات تبدو كالأنهار، وكان من المؤكد أنه عند هطول أمطار الصيف لابد من حدوث فيضان قوي. ركض «وانج لانج» بسرعة هنا وهناك و«شينج» يتبعه كظله وهو صامت، فوجدوا أن القنوات مملوءة بالماء إلى حوافها.

زادت المياه وأصبح الفلاحون يعيشون في جزر منعزلة عن بعضها البعض. كان الناس يرون الماء يرتفع كل يوم وعندما يصبح على بعد قدمين من بيوتهم يربطون أسرتهم ومقاعدهم وطاولاتهم مع بعضها

البعض ويضعون الأبواب فوقها كطوافات ثم يكومون ما يستطيعون جمعه من ملابس ووسائد وملابس لهم ولأطفالهم ونسائهم فوق الطوافات. ارتفعت المياه في البيوت الطينية وجعلت الجدران طرية وفصلتها عن بعضها البعض، وذابت الجدران داخل الماء وزالت أجزاء منها.

جلس «وانج لانج» عند باب بيته ونظر إلى المياه التي كانت لا تزال بعيدة عن بيته بمسافة كافية، وذلك لأن بيته يقع فوق ربوة عالية. لكنه كان يرى الماء يغطي أرضه، وكان يراقبه خوفًا من أن يغطي المقبرة حديثة البناء، لكن ذلك لم يحدث بالرغم من أن الماء قد تسرب إلى بعض المقابر الأخرى.

● **لا يوجد حصاد:**

لم يكن هناك حصاد من أي نوع في ذلك العام، كان جميع الناس في حزن لما أصابهم ويعانون من الجوع. اتجه بعضهم إلى الجنوب أما أصحاب القلوب القوية فقد تجرأوا وانضموا إلى عصابات السرقات التي انتشرت في جميع أنحاء البلاد.

سادت البلاد مجاعة لم يشهد «وانج لانج» مثلها من قبل، حيث لم تسقط الأمطار في موعدها المناسب لزراعة القمح في الشتاء، ويبدوا أن العام التالي لن يكون له أي محصول أيضًا.

لم يسمح «وانج لانج» بشراء أي شيء في البيت وباع كل ما يمكن بيعه عدا ما يحتاجون هم إليه في الشتاء، وحافظ بعناية على كل ما يحتاجون إليه، كان يعطي زوجة ابنه الطعام الذي يحتاج إليه البيت كل يوم ويعطي «شينج» ما يحتاج العمال إليه يوميًا، وذلك على الرغم من تألمه من إطعام العاطلين عن العمل، وأخيرًا طلب منهم عندما زاد

الماء في الشتاء وتجمد أن يذهبوا إلى الجنوب للتسول والعمل حتى قدوم الربيع، ثم يعودوا إليه. وكان يعطي «لوتس» الزيت والسكر خلسة وذلك لأنها غير معتادة على الحياة الصعبة.

لم يكن «وانج لانج» فقيرًا وإن تظاهر بذلك فقد كان لديه كثير من الفضة التي يخفيها وبعض الذهب أيضًا في جرة مدفونة تحت قاع البحيرة الموجودة في حقله القريب. وكان عنده حبوب من العام السابق لم يبعها في السوق، فلم يكن خطر المجاعة قريبًا من بيته.

لكن كان جميع الناس من حوله في مجاعة، فتذكر صيحات الجوعى عند باب البيت الكبير عندما كان يمشي ويعرف أن هناك كثيرين يكرهونه لأنه لا يزال لديه ما يطعم به أطفاله، لذلك حافظ على بواباته مغلقة. لكنه يعرف أن ذلك لن ينقذه من اللصوص في هذه الأيام العصيبة، فهذا يحدث فقط بسبب عمه الذي يتعامل «وانج لانج» معه ومع زوجته وابنه الآن بأدب، فالثلاثة ما هم إلا ضيوف في بيته.

● **تذمر أسرة العم:**

رأى «وانج لانج» أنه بالرغم من أن عمه قد أصبح كبيرًا في السن وكسولًا وغير مبال، ولن يسبب مشكلات أو يشتكي لو تركه بمفرده، إلا أنه لن يستطيع ذلك بالنسبة لزوجته وابنه. وذات يوم سمعهما يقولان لعمه: «عنده المال والطعام ويتركنا نطلب منه الفضة.» ثم قالت المرأة: «لن تتاح لنا فرصة مثل هذه مرة أخرى، وذلك لأنه يعرف أنه لو لم تكن أنت عمه، لكانوا سرقوه وتركوا البيت خرابًا، فأنت الرجل الثاني في عصابة الذقون الحمراء.»

وقف «وانج لانج» يستمع إليهم خلسة، وعندما سمع ذلك غضب

بشدة، لكنه حافظ على هدوئه وحاول أن يخطط لما يمكن أن يفعله لهؤلاء الثلاثة، لكنه لم يستطع التوصل لشيء. وفي اليوم التالي جاءه عمه يطلب فضة، ثم قبل مرور يومين جاءه مرة أخرى يطلب فضة، فصاح «وانج لانج»: «نعم ... هكذا سنموت جميعًا من الجوع قريبًا.» فرد عمه: «أنت تعيش في رغد يوجد كثيرون أقل منك غنى تعرضوا للأذى في بيوتهم.» عندما سمع «وانج لانج» ذلك تصبب عرقًا باردًا فأعطى عمه الفضة دون أن ينطق بكلمة. وعلى الرغم من أنه لن يستطيع شراء لحم في البيت، إلا أن هؤلاء الثلاثة لابد أن يأكلوا لحمًا. وعلى الرغم من أن «وانج لانج» نفسه لا يدخن إلا نادرًا إلا أن عمه كان ينفث دخان غليونه طوال الوقت.

- **ومشكلات مع الابن:**

أصبح الابن الأكبر لـ «وانج لانج» غير مدرك لما يحدث حوله منذ أن تزوج، وذلك بالرغم من غيرته على زوجته وإخفائها من أمام نظرات ابن عمه، لذلك لم يصبحا صديقين بل عدوين.

كان ابن «وانج لانج» نادرًا ما يسمح لزوجته بالخروج من غرفتهما عدا في المساء عندما يخرج غريمه ووالده. لكنه عندما علم بما فعله الثلاثة مع أبيه غضب وقال: «إذا كان هؤلاء الأوغاد الثلاثة أهم عندك من ابنك وزوجته التي ستحمل حفيدك، فإن ذلك أمرًا غريبًا، وعلينا أن نقيم بيتًا خاصًا لنا في مكان آخر.»

عند ذلك اضطر «وانج لانج» أن يخبره بما لم يخبر به أحد فقال: «إنني أكره هؤلاء الثلاثة كما لم أكره أحدًا في حياتي، وإذا كان بيدي أي حيلة لفعلتها. إن عمي زعيم عصابة لصوص فإذا أطعمته وعاملته

برفق أظل آمنًا.» حملق الابن الأكبر مستغربًا عندما سمع ذلك لكنه فكر في الأمر لبعض الوقت وقال وهو لا يزال غاضبًا بشدة: «كيف ذلك ؟ فلنلقيهم جميعًا في الماء ذات ليلة.»

لكن «وانج لانج» ليس بقاتل، وإن كان أهون عليه أن يقتل عمه من أن يذبح ثوره. لكنه لا يستطيع أن يقتل أي أحد حتى ولو كان يكرهه، فقال: «حتى إن استطعت أن أفعل ذلك، فلن أفعل، فماذا نفعل إذا سمع بقية اللصوص عن ذلك، نحن آمنون طوال حياته.»

صمت الإثنان وكل منهما يفكر بعمق فيما يمكن عمله، ثم صاح «وانج لانج» أخيرًا: «إذا كانت هناك طريقة للاحتفاظ بهم هنا دون أذى فكيف تكون، أليس هناك طريقة سحرية تؤدي إلى ذلك.»

● **إدمان الأفيون:**

صاح الابن: «إذا كنت تتساءل عما نفعل، دعنا نشتري لهم الأفيون ليدمنوه. فلنقدمه لهم، ثم نقدم المزيد حتى يظنون أنهم مثل كبار الأغنياء.» لكن «وانج لانج» كان لا يزال متشككًا، فالفكرة ليست فكرته.

قال «وانج لانج» ببطء: «سيكلفنا ذلك الكثير من المال، الأفيون غال كالأحجار الكريمة.» رد الابن: «لكن الأغلى من الأحجار الكريمة أن نراهم كما نريد لهم. إن ابنهم يسترق النظر إلى زوجتي.»

لم يقبل «وانج لانج» بذلك فورًا، فالأمر ليس سهلًا، وسيتكلف الكثير من المال. كما أن النتيجة ليست مضمونة. لكن حدث ما عجل بالإسراع في التنفيذ. وذلك أن ابن عم «وانج لانج» كان ينظر إلى الابنة الثانية لـ«وانج لانج» على أنها أخت له. لكنها أصبحت الآن فتاة جميلة، بشرتها رقيقة مثل الزهور وأنفها دقيق وشفاهها حمراء ورقيقة وقدميها

صغيرتان. أمسك بها ابن العم ذات ليلة وهي تمشي في صحن البيت خارجة من المطبخ فصرخت وجاء «وانج لانج» يركض وضرب ابن عمه على رأسه، فضحك بشدة وقال: «كنت أمزح فقط ... أليست أختي.» لكن «وانج لانج» جذب ابنته وأرسلها إلى غرفتها. أخبر «وانج لانج» ابنه بما حدث في تلك الليلة فقال ابنه: «لابد أن نرسل الفتاة إلى المدينة لتعيش في بيت خطيبها.» لذلك ذهب «وانج لانج» في اليوم التالي إلى المدينة، وقابل التاجر في منزله وقال له: «إن ابنتي بلغت ثلاثة عشر عامًا الآن ولم تعد طفلة صغيرة ويمكن أن تتزوج. ماتت أمها والبنت جميلة وبيتي مليء بهذا وذاك ولا أستطيع مراقبتها طوال الوقت. وبما أنها ستصبح من أفراد عائلتك، خذها لتعيش عندكم.»

كان التاجر رجلًا عطوفًا فرد قائلًا: «دع الفتاة تأتي وسأتحدث مع زوجتي في هذا الأمر، ستكون في أمان هنا مع حماتها وبعد الحصاد القادم تقريبًا، نقيم العرس.»

هكذا تم تسوية الأمر، وشعر «وانج لانج» بالرضا وخرج. لكنه وهو في طريقه إلى بوابة سور المدينة حيث كان «شينج» ينتظره بقارب، مر «وانج لانج» بمحل يبيع التبغ، فدخل يشترى كمية قليلة من التبغ المقطع قطعًا صغيرة ليدخنه في المساء على أرجيلته، وبينما كان البائع يزن له التبغ قال «وانج لانج» دون اكتراث: «وبكم تبيعون الأفيون، إذا كان عندكم منه ؟» فرد البائع: «هذا ضد القانون الآن ولا نستطيع بيعه علانية هنا، لكن إذا كنت ترغب في شرائه فهو يباع في الغرفة الخلفية، الأوقية بقطعة فضة.»

رد «وانج لانج» بسرعة: «أريد ست أوقيات.»

28 حفيد وأخبار طيبة

قال «وانج لانج» يومًا ما لعمه: «أنت عمي وأنا أهديك هذا النوع من الدخان الجيد.» تناول عم «وانج لانج» اللفافة بنهم فقد كان يشم رائحة زكية، واحضر غليونه ودخن فيه الأفيون، كان يقضي طوال يومه على الفراش يدخن. شجع «وانج لانج» ذلك كما شجع أن يتعاطى ابن عمه وزوجة عمه الأفيون أيضًا، ولم يكن يبخل بأي فضة تدفع مقابل ذلك، فهذا هو ثمن العيش في سلام.

وذات يوم خرج «وانج لانج» ماشيًا إلى أرضه، فتبعه ابنه الأكبر وقال بفخر: «سيكون هناك فرد جديد قريبًا في هذا البيت، سيأتي حفيدك.» فرك «وانج لانج» يديه وقال: «هذا يوم خير فعلًا.»

قضى «وانج لانج» كل فصل الربيع في انتظار موعد قدوم الحفيد حتى يشعر بالراحة.

• الأرض والإماء.. هل من مزيد!

وعندما اقترب الصيف عاد من كانوا قد هجروا القرية وهم متعبون ومتشوقون للقرية، وذلك بالرغم من أن بيوتهم قد تحولت إلى طمي أصفر. لكن من الممكن بناء البيوت مرة أخرى باستخدام هذا الطمي، فجاء كثيرون إلى «وانج لانج» لاقتراض المال، وكان الضمان الذي يطلبه دائمًا هو الأرض. ومن لا يستطيع اقتراض المال كان يبيع الأرض.

كان هناك من لا يريدون بيع الأرض ويبيعون بناتهم بدلًا منها،

وجاء بعضهم إلى «وانج لانج» وذلك لأنه معروف عنه أنه غني وقوي وحنون. اشترى «وانج لانج» خمس إماء في يوم واحد، فهو غني ينفذ ما يريد فورًا.

ثم جاءه رجل بعد عدة أيام أخرى يحمل طفلة رقيقة عمرها سبع سنوات تقريبًا ويريد بيعها. في بادئ الأمر قال «وانج لانج» أنه لن يشتريها لأنها صغيرة جدًا وضعيفة. إلا أن «لوتس» رأتها وأعجبت بها فقالت: «سأشتريها لأنها جميلة جدًا.»

لذلك اشترى «وانج لانج» البنت بعشرين قطعة من الفضة، وعاشت في البيت الداخلي وكانت تنام على الأرض عند طرف الفراش الذي تنام «لوتس» عليه.

● **السلام لا يدوم:**

الآن ظن «وانج لانج» أن السلام قد عاد إلى بيته. وعندما جاء الصيف كان عليه أن يزرع الأرض، فكان يذهب هنا وهناك ويعاين كل قطعة أرض، وكان يصحب ابنه الأصغر معه أينما ذهب، فهو من سيرعى الأرض من بعده وعليه أن يتعلم. كان الفتى يمشي منكس الرأس ونظراته جادة لكن لا أحد يعرف فيما يفكر.

إلا أن السلام لا يدوم في بيت «وانج لانج» وهذه المرة أيضًا كان ابن عمه وابنه الأكبر هما السبب. فحينما عاد «وانج لانج» من الحقول ومعه ابنه الأصغر، استوقفه ابنه الأكبر وقال: «أنا لن أتحمل ابن عمي في هذا بالبيت بعد الآن فهو يختلس النظر إلينا ويتسكع وسط الإماء.»

لكن «وانج لانج» قال: «ألن تنتهي المشكلات داخل بيتي بين الذكور والإناث؟ ثم صمت قليلًا وصاح: «لكن ماذا تريدني أن أفعل؟» رد ابنه

الشاب بتأن: «أتمنى أن نترك هذا البيت ونذهب إلى المدينة ونعيش هناك، ونترك عمي وزوجته وابن عمي هنا ونعيش هناك في سلام خلف البوابات.»

رد «وانج لانج»: «هذا بيتي ... يمكنك أن تعيش فيه أو لا تعيش، وقام وبصق على الأرض وتصرف كفلاح، وذلك بالرغم من أنه كان فخورًا بابنه في داخله.

● بيت عائلة هوانج:

لكن الابن الأكبر لم يكن مستعدًا للاستسلام، فتبع أباه وقال له: «هناك البيت الكبير الخاص بعائلة «هوانج». الجزء الأمامي منه يسكنه عامة الناس إلا أن الجزء الداخلي مغلق وصامت، يمكننا استئجاره والعيش فيه بسلام.» ثم تساقطت العبرات من عينيه ولم يمد يده ليمسحها.

لم يعرف «وانج لانج» ما إذا كانت دموع ابنه فقط هي التي حركته أم أنه تأثر أيضًا بالحديث عن بيت عائلة «هوانج».

لم ينس «وانج لانج» أنه ذهب إلى بوابات ذلك البيت الكبير في يوم ما ووقف وهو يخجل من الظهور أمام أصحاب البيت، فقفزت فكرة إلى رأسه: «يمكنني أن أجلس على الكرسي الذي كانت تستخدمه السيدة الكبيرة.»

لم يجب على ابنه، لكنه حلم بما يمكن أن يفعله لو أراد، بالإضافة إلى أنه قد ضاق ذرعًا من ابن عمه العاطل، فهو متأكد من أنه يحملق في الفتيات فقال: «أنا لا أستطيع العيش وهذا الكلب في بيتي.»

نظر إلى عمه وزوجته وهما ثملان بعدما اكتفيا من تعاطي الأفيون، هؤلاء قليلو المشكلات الآن، فقد فعل بهما الأفيون ما أراده لهما «وانج لانج». وفي يوم من الأيام ذهب «وانج لانج» ليزور ابنه الثاني في متجر الغلال فقال له: «أي بني ... ما رأيك في رغبة أخيك الأكبر أن نعيش في المدينة في البيت الكبير إن تمكنا من استئجار جزء منه.» كان ابنه الثاني قد أصبح شابًا بالرغم من صغر حجمه ولونه الأصفر وعينيه الزائغتين، رد الابن فقال: «هذه فكرة ممتازة وتناسبني جدًا، حيث يمكنني أن أتزوج وآت بزوجتي إلى هذا البيت ونعيش جميعًا تحت سقف واحد كعائلة كبيرة.»

لم يفعل «وانج لانج» حتى الآن أي شيء ليزوج هذا الابن، كان لديه الكثير من المشكلات التي شغلته. فرد وهو يشعر بالخزي: «لقد مر وقت طويل وكان يجب أن تتزوج، لكن المشاغل كانت كثيرة ولم يكن لدي وقت كاف، والزواج يمكن أن يتم الآن.»

رد الابن: «إذن زوجني حيث أنه من الخير للرجل أن يتزوج، لكن لا تحضر لي زوجة من بيت من بيوت المدينة، كما فعلت مع أخي، فهي ستحلم بما كان في بيت أبيها طوال الوقت وتجعلني أنفق المال وهذا يغضبني.» سمع «وانج لانج» هذا الكلام وهو يتعجب، حيث لم يكن يعلم أن زوجة ابنه الأكبر تفعل ذلك، فهو يراها امرأة حريصة على السلوك الطيب وتبدو رزينة وعادلة. إلا أنه أعجب بحديث ابنه ونظر إليه وقال: «إذن أي نوع من البنات تريد؟» رد الشاب كما لو كان قد استعد لهذا السؤال من قبل: «أريد فتاة قروية، من أسرة تملك أرضًا وليس لها أقارب فقراء، عروس تأتي ومعها خير كثير، ليست جميلة وليست عادية حتى لا ينظر إليها أحد، وطاهية ماهرة. هذه هي صفات من أريد.»

تعجب «وانج لانج» عندما استمع إلى هذا الكلام، إلا أنه أعجب بالحكمة في طريقة كلام ابنه وقال: «سأبحث لك عن فتاة بهذه المواصفات، كما سيبحث عنها «شينج» في القرى المجاورة.»

غادر «وانج لانج» المكان وهو يضحك، ثم ذهب إلى الشارع الموجود به البيت الكبير، ولم يكن هناك من يوقفه عند البوابة، فدخل حتى وصل إلى القاعات الأمامية التي كانت ممتلئة بجموع من الناس الذين ملؤوها بعد مغادرة الكبار. كان «وانج لانج» في الأيام الخوالي يعتبر نفسه واحدًا من هؤلاء العامة. لكنه الآن يملك الفضة والذهب ويخفيها في مكان آمن وبعيد، وهو يشعر بالاشمئزاز منهم، وكان يحنق عليهم كما لو كان من أصحاب البيت الكبير.

وعندما دخل إلى القاعات الداخلية، وجد امرأة نائمة، فنظر إليها وتذكر السنوات الطوال التي مرت بعدما جاء إلى هذا البيت وهو شاب صغير يحمل ابنه على ذراعه، ولأول مرة يشعر «وانج لانج» أن العمر قد تقدم به. قال: «استيقظي وأدخليني من البوابة.» استيقظت المرأة العجوز وقالت: «غير مسموح لي أن أفتح إلا لمن يستأجر البيت الداخلي كله، فرد «وانج لانج» فجأة: «سأفعل ذلك إذا أعجبني المكان.»

سار خلفها وتذكر المكان جيدًا. إلا أن القاعات كانت صامتة. تبعها إلى حيث القاعة الكبرى فعاد بذاكرته سنوات كثيرة إلى الوراء حيث وقف هنا ليتزوج أمة من إماء البيت. تقدم وجلس حيث كانت السيدة الكبيرة تجلس في رداء من الستان. امتلأ بالرضا الذي كان يسعى إليه طوال حياته وقال فجأة: «سآخذ هذا البيت.»

29 الانتقال إلى المدينة

لا يستطيع «وانج لانج» هذه الأيام أن ينهي كل ما يريد عمله بسرعة، لذلك فقد طلب من ابنه الأكبر أن يتابع الأمر وأرسل إلى أخيه الثاني ليأتي ويساعده في النقل، وعندما أصبح كل شيء جاهزًا للنقل، نقلوا أولًا «لوتس» و«كوكو» بما معهم من الإماء والأمتعة، ثم الابن الأكبر لـ «وانج لانج» وزوجته والخدم والإماء.

إلا أن «وانج لانج» نفسه لن ينتقل بسرعة، فقد تخلف مع ابنه الأصغر. وعندما حان موعد الرحيل وترك الأرض التي ولد عليها لم يتمكن من ذلك بسهولة وقال لأبنائه الذين كانوا يشجعونه على ذلك: «اعدوا لي غرفة أستخدمها بمفردي، وسآتي عندما أجد الفتاة التي يمكن أن يتزوجها ابني الثاني.»

لم يعد هناك أحد بالبيت سوى العم وزوجته وابنه و«شينج» والعمال بالإضافة إلى «وانج لانج» وابنه الصغير وابنته البلهاء. نام «وانج لانج» واستراح لأنه شعر بالتعب فجأة، كان البيت هادئًا وكان ابنه الصغير فتى هادئًا ولا يزعج أباه.

إلا أن «وانج لانج» أزعج نفسه بأن طلب من «شينج» أن يبحث عن فتاة يزوجها لابنه الثاني، وعندما علم «شينج» برغبة «وانج لانج» اغتسل ولبس أفضل ثيابه وهو أزرق اللون وذهب إلى القرى المجاورة، ثم عاد أخيرًا وقال: «توجد فتاة في قرية تبعد عن قريتنا بثلاث قرى، إنها طيبة وحريصة ومكتملة الصفات إلا أنها مستعدة دائمًا للضحك. وأبوها على

استعداد لأن يزوجها، كما أن المهر معقول بالنسبة للوقت الحالي، وهو أيضًا يملك أرضًا.»

● **زواج الابن الثاني:**

رأى «وانج لانج» أنها زيجة مناسبة وعندما حان وقت الرسميات وقع على الأوراق وقال: «لم يعد لي سوى ولد واحد وتنتهي كل الزيجات، ثم أصبح سعيدًا وارتاح.» وعندما انتهى الأمر وأقيم العرس، جلس يستريح في الشمس ثم نام، تمامًا مثلما كان أبوه يفعل من قبل.

بعد ذلك لاحظ «وانج لانج» أن «شينج» قد أصبح ضعيفًا بسبب تقدم العمر وأنه هو نفسه أصبح ثقيلًا وميالًا للنوم بسبب كثرة الأكل وتقدم العمر، وابنه الثالث لا يزال فتى صغيرًا، فكان من المستحسن بالنسبة له أن يؤجر بعض قطع الأرض البعيدة عند أطراف القرية لفلاحين من القرية، فجاء الكثير من الناس يودون استئجار الأرض وقد حدد «وانج لانج» الإيجار بنصف المحصول.

وعندما أصبحت الحاجة إليه قليلة في هذا المكان، أصبح «وانج لانج» يذهب أحيانًا إلى المدينة ويبيت في الغرفة التي أعدوها له في البيت الكبير، لكن عندما يطلع النهار يعود إلى أرضه ويشم رائحة الحقول الطيبة التي كانت تسعده. ثم زادت سعادته ونال راحة البال في كبره حين علم أن ابن عمه سبب المشكلات في البيت قد سمع عن حرب في الشمال وقال لـ «وانج لانج»: «يقال إن هناك حربًا في الشمال، سأذهب وألتحق بالجيش إذا أعطيتني فضة لأشتري ملابس وأغطية وبندقية مستوردة أضعها على كتفي.» أعطاه «وانج لانج» الفضة بسرعة وقال في نفسه: «قد يُقتل، فهناك قتلى في كل حرب.»

انفرجت أسارير «وانج لانج» رغم أنه كان يحاول إخفاء ذلك. وكان يواسي زوجة عمه عندما تبكي بسبب سفر ابنها. وأخيرًا عم السلام، فلم يتبق غير الاثنين الكبار النائمين دائمًا في البيت الريفي، أما في بيت المدينة فقد حانت ساعة قدوم حفيد «وانج لانج».

وكلما اقتربت ساعة الولادة كلما مكث «وانج لانج» وقتًا أطول في بيت المدينة، فهنا في بيت المدينة الكبير أصبح «وانج لانج» يعيش مع زوجته وأولاده يعيشون مع زوجاتهم، وذلك في نفس الغرف التي عاشت فيها عائلة «هوانج» الكبيرة. والآن سيأتي طفل من الجيل الثالث.

ملأت السعادة قلب «وانج لانج» فماذا يمكن أن يشتري بأمواله بعد كل ذلك، فقرر أن يأكل أطايب الطعام، فأكل من كل أنواع المأكولات التي يأكلها الأغنياء، كما أكل جميع أبنائه و«لوتس» و«كوكو»، فشعر «وانج لانج» أنه فعل كل ما يريد فضحك وقال: «إنها أيام لا تشبه تلك الأيام التي جئت فيها هنا لأول مرة.»

- **في انتظار الحفيد:**

قضى «وانج لانج» أيامًا عديدة دون عمل ينتظر حفيده. وفي صباح ذات يوم دخل إلى غرفة ابنه الأكبر فقابله ابنه وقال: «لقد حانت الساعة، لكن «كوكو» تقول إن الأمر سوف يستغرق وقتًا، لذلك عاد «وانج لانج» إلى غرفته وجلس ينتظر، ولأول مرة منذ سنوات عديدة يشعر بالرعب والقلق. وفجأة خطر على باله خاطر أزعجه: «ماذا لو لم يكن المولود ولدًا، بل بنتًا.»

جاء المساء واقترب الليل فشعر «وانج لانج» أنه قد انتظر طويلًا بما فيه الكفاية جاءت «لوتس» وهي تتكئ على «كوكو» بسبب وزنها الكبير

وقدميها الصغيرتين، فضحكت وقالت بصوت عال: «جاء طفل ولد في بيت ابنك، لقد رأيت الطفل إنه جميل ومعاف.» ضحك «وانج لانج» وقال: «وأنا أجلس هنا كمن ينتظر مولوده الأول، خائف من كل شيء.» وعندما ذهبت «لوتس» إلى غرفتها، جلس «وانج لانج» يفكر مرة أخرى وقال في نفسه: «لم أكن خائفًا هكذا عندما كانت زوجتي تضع مولودها الأول. جلس «وانج لانج» صامتًا يتذكر ذلك اليوم عندما دخلت «أولين» بمفردها إلى الغرفة الصغيرة المظلمة وتذكر كيف أنها وضعت ذكورًا وإناثًا بمفردها في هدوء، ثم كيف كانت تذهب إلى الحقول بعد ذلك وتعمل بجانبه، وأدرك أن ذلك حدث منذ وقت طويل.

عندما أصبح عمر الطفل شهرًا أقام ابن «وانج لانج» حفل ميلاد له ودعا له كل كبار المدينة وصبغ عدة مئات من بيض الدجاج باللون الأحمر اللامع وأعطى منها لكل ضيف، كان البيت زاخرًا بالسعادة والمرح. ثم جاء أحد العمال من الحقول أثناء موسم الحصاد ليخبر «وانج لانج» أن «شينج» يرقد محتضرًا ويود أن يرى «وانج لانج» قبل أن يموت.

وبالرغم من أن وجبة الغداء كانت معدة، وأن «لوتس» قد نادته وطلبت منه أن ينتظر حتى تميل الشمس إلى المغيب خرج «وانج لانج» فورًا. فأرسلت «لوتس» إحدى الإماء خلفه وهي تحمل شمسية، إلا أن «وانج لانج» كان يجري بسرعة لم تتمكن الأمة من ملاحقته وإبقاء الشمسية فوق رأسه.

● موت شينج:

دخل «وانج لانج» فورًا إلى غرفة «شينج» وجلس بجواره وأمسك بيده، ومال عليه وقال في أذنه: «أنا هنا، سأشتري لك نعشًا مثل نعش أبي

تمامًا.» لكن «شينج» لم يصدر أي إشارة على أنه سمع «وانج لانج» فهو يرقد محتضرًا، ثم مات في صمت. مال «وانج لانج» فوقه عندما مات وبكى كما لم يبك على والده عندما مات، وأمر بشراء نعش من أجود الأنواع وجاء بمن يقرأون الدعوات أثناء الجنازة ومشى وراءه وهو يرتدي ثياب الحداد البيضاء. وقد جعل ابنه الأكبر يرتدي علامات الحداد على كعبيه كما لو كان واحدًا من أقاربهم قد مات، وذلك بالرغم من أن ابنه قد تذمر وقال: «لقد كان مجرد كبير للخدم، وليس من اللائق أن نرتدي الحداد من أجل خادم.» لو كان الأمر بيد «وانج لانج» لدفن «شينج» في نفس الأرض التي دفن فيها أباه و«أولين» لكن أبناءه لن يوافقوه على ذلك. فدفنه على مقربة منهما، وكان مقتنعًا بما فعل وقال: «هذا حقه فقد كان دائمًا يحول بيني وبين الشر.» وأمر أولاده أن يدفنوه بالقرب من «شينج» عندما يموت.

• تأجير الأرض:

لم يعد «وانج لانج» يذهب لرؤية أرضه إلا قليلًا لأن «شينج» قد مات، فأجر كل ما يستطيع تأجيره من الأرض، إلا أنه لم يتحدث عن بيع قدم واحد من أي قطعة منها. طلب «وانج لانج» من واحد من العمال أن يقيم في بيته الريفي هو وزوجته وأطفاله وأن يعتني بالعجوزين مدمني الأفيون. وقال لابنه الأصغر: «يمكن أن تأتي معي إلى المدينة الآن، وسآخذ هذه البلهاء أيضًا فيمكنها أن تعيش في نفس الجناح الذي أعيش فيه أنا، ستشعر بالوحدة هنا حيث لا يوجد من يعطيك الخبرة عن الأرض، فقد رحل «شينج».

وبعد أن أخذ «وانج لانج» ابنه الأصغر وابنته البلهاء إلى حيث يعيش، أصبح من النادر جدًا أن يذهب إلى بيته الريفي بجانب أرضه.

30 إسراف واضح

لم يعد «وانج لانج» يريد أي شيء الآن، يمكنه أن يجلس على كرسيه في الشمس وبجانبه ابنته البلهاء. كان من الممكن استمرار ذلك الهدوء والسلام لولا أن ابنه الأكبر لا يرضى أبدًا بل هو دائم البحث عن المزيد. فجاء إلى أبيه وقال: «إن أخي الأصغر سيتزوج خلال ستة أشهر، وليس لدينا ما يكفي من غرف. وأنا أرى أن علينا أن نستأجر الغرف الخارجية أيضًا حيث أن ذلك يناسب أسرة تملك المال الكثير والأرض الطيبة مثلنا.»

كان «وانج لانج» متضايقًا من ابنه فقال بصوت عال: «افعل ما تريد... افعل ما تريد، ولا تزعجني بالأمر.»

خرج الابن مسرعًا بمجرد أن سمع ذلك الكلام خشية أن يغير الأب رأيه، وعند حلول رأس السنة وجد عامة الناس مستأجري الغرف الخارجية أن الإيجار ارتفع كثيرًا وكان عليهم أن يرحلوا، فغادروا المكان وهم يتذمرون ويلعنون الأغنياء الذين يمكنهم أن يفعلوا كل شيء يحلو لهم.

استدعى «وانج لانج» النجارين وأصلح الغرف وأعاد إنشاء البرك وجعلها جميلة جدًا بقدر معرفته بالجمال.

كان «وانج لانج» ينفق كل أمواله شيئًا فشيئًا وهو لا يعرف مجمل ما أنفق لولا أن ابنه الأوسط جاء وقال له: «أبي ألا يوجد حد للإنفاق، وهل نحن بحاجة إلى أن نعيش في قصر؟»

لاحظ «وانج لانج» أن هذين الأخوين سوف يتشاجران حول هذا الموضوع، فقال: «كل هذا بسبب عرسك القريب.» فرد الشاب قائلاً: «من الغريب أن يتكلف الإعداد للعرس عشرة أضعاف ما تكلفته العروس، إن ميراثنا ينفق هباء من الآن فقط لإرضاء أخي الأكبر.»

قال «وانج لانج» بسرعة: «سأتحدث مع أخيك الأكبر وسأمسك يدي.» ثم تحدث مع ابنه الأكبر تلك الليلة وقال: «كف عن إنفاق الفضة، فهذا كاف.» وكان الابن مستعدًا لأن يطيع أباه، فقد كان قد اكتفى بما تم في الغرف والردهات في الوقت الحاضر على الأقل، لكنه قال لأبيه: «كما ترى، هذا كاف، لكن هناك أمر آخر، من أجل أخي الأصغر، إنه ابنك. ليس من اللائق أن ينشأ بيننا وهو جاهل. لابد له أن ينال قسطًا من التعليم. يمكننا أن نستدعي معلمًا ليدرس له، وأنا هنا بالبيت أساعدك، وأخي الأوسط يعمل بالتجارة، لنترك الصبي يختار ما يشاء.»

• تعليم الابن الأصغر:

رد «وانج لانج» أخيرًا: «أرسله لي إلى هنا الآن.» فجاء الابن الأصغر بعد قليل ووقف أمام أبيه. رأى «وانج لانج» فتى يقف أمامه لا يشبه ملامح أبيه ولا أمه، إلا أنه يشبه أمه من حيث الصمت.

قال «وانج لانج»: «أخوك يقول أن لديك رغبة في أن تتعلم القراءة وأنا أفترض أن ذلك يعني أنك لا تريد العمل في الأرض، فلا يصبح لدي ابن يعمل في الأرض.»

قال «وانج لانج» كلامه بمرارة، لكن الولد لم يتحدث حتى غضب «وانج لانج» من صمته فصاح: «لماذا لا تتكلم؟ هل صحيح أنك لا تريد العمل في الأرض ؟»

رد الولد بكلمة واحدة فقط: «نعم.»

صاح «وانج لانج» مرة أخرى وهو يشعر أن أبناءه يسيئون معاملته: «ماذا تريد أن تفعل بي؟ أغرب عن وجهي.»

خرج الولد مسرعًا وقال «وانج لانج» في نفسه أن ابنتيه كانتا أفضل من أبنائه جميعًا على أي حال. لكنه وكما كان يفعل دائما –يترك أبناءه يفعلون ما يريدون– نادى على ابنه الأكبر وقال: «استدع معلمًا لأخيك الأصغر، إذا كان يرغب في ذلك.» ونادى على ابنه الأوسط وقال: «ليس لدي من يرعى الأرض الآن، وعليك أن تهتم بشئون الإيجارات وتجمع الفضة الناتجة عن كل حصاد.»

● **يوم زفاف الابن الثاني:**

كان الابن الأوسط سعيدًا بما فيه الكفاية لأنه سيعرف مقدار المال الداخل إلى البيت. وكان هذا الابن حريصًا جدًا في إنفاق المال يوم زفافه، فأعطى الإماء والخدم أقل ما يمكن أن يعطيهم من مال، حتى أن أخاه الأكبر شعر بالخجل وأعطاهم مزيدًا من الفضة. وهكذا حدثت مشكلة بينهما في يوم الزفاف.

طلب الأخ الأكبر من قليل من أصدقائه أن يأتوا إلى للعرس لأنه كان يخجل من تصرفات أخيه، ولأن العروس قروية.

لا يبدو الآن أن أيًا منهم يعيش في سلام سوى الحفيد الصغير. ومن هذا الحفيد كان «وانج لانج» يستمد الشعور بالهدوء والراحة. كان لا يمل من متابعته والضحك معه ورفعه إلى أعلى عندما يتعثر.

ولم يعد ذلك هو الحفيد الوحيد، لأن زوجة ابنه الأكبر كانت تحمل

بانتظام كما حملت زوجة ابنه الأوسط بسرعة أيضًا، وأنجبت بنتًا وهذا لم يجعلها نظيرة لزوجة الابن الأكبر. وخلال خمس سنوات كان لـ «وانج لانج» أربعة أحفاد وثلاث حفيدات، وكانت الطرقات والغرف تعج بضحكاتهم وصراخهم.

خمس سنوات لا تمثل أي شيء في عمر الإنسان عندما يكون صغيرًا جدًا أو كبيرًا جدًا، فخلال تلك السنوات الخمس، جاءه هؤلاء الأحفاد ومات عمه العجوز.

لم يعرف «وانج لانج» الساعة التي مات فيها عمه، علم فقط بأنه مات في إحدى الليالي بينما كانت الخادمة تدخل له وعاء من الحساء، ودفنه «وانج لانج» في يوم شديد البرودة، حيث واراه الثرى في مدفن العائلة في مكان ينخفض قليلًا عن مكان أبيه إلا أنه أعلى قليلًا من المكان الذي خصصه لنفسه. جعل «وانج لانج» كل الأسرة تعلن الحداد فارتدوا شارات الحداد لمدة عام، فهذا هو ما يفعله أفراد العائلات الكبيرة عندما يموت أحد أقاربهم.

ثم نقل «وانج لانج» زوجة عمه إلى المدينة، لكنه أعطاها غرفة في أقصى نهاية القسم الداخلي ومعها أمة تهتم بشئونها. واشترى لها نعشًا خشبيًا، كانت المرأة تتعاطى الأفيون برضا تام، وكان النعش موضوعًا بجوارها حيث يمكنها أن تنظر إليه وتشعر بالراحة.

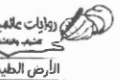

31 الحرب

سمع «وانج لانج» طوال حياته أن هناك حربًا تنشب هنا وهناك، إلا أنه لم يرها أبدًا، إلا أن الحرب اقتربت منه فجأة. سمع «وانج لانج» عن الحرب أولًا من ابنه الأوسط حيث قال له: «ارتفع سعر القمح فجأة بسبب اقتراب الحرب يومًا عن يوم، وعلينا أن نحتفظ بما في مستودعاتنا لأن السعر يزيد يومًا عن يوم كلما اقتربت الجيوش منا.»

وفي يوم جاءت حشود من الناس من الشمال الغربي، حيث كان حفيد «وانج لانج» يقف عن البوابة الكبيرة في صباح مشمس، فرأى طابورًا طويلًا من الرجال الذين يرتدون اللون الرمادي فصاح: «انظر أيها الجد الكبير إلى هؤلاء القادمين.»

• الحرب وضيوف من الجنود:

خرج «وانج لانج» إلى البوابة مع حفيده فرأى رجالًا يملؤون الشارع، كانت وجوههم قاسية ومتجهمة، جذب «وانج لانج» الطفل إليه وقال: «علينا أن ندخل ونغلق البوابة. إنهم ليسوا أناسًا طيبين حتى نقف ونشاهدهم يا حبيبي.» ولكنه وقبل أن يستدير ويغلق البوابة، رآه أحد الرجال المارين بالشارع، فصاح يناديه: «أنت ... يا ... يا ابن عم أبي.»

التفت «وانج لانج» عندما سمع النداء فرأى ابن عمه الذي ضحك بقوة ونادى على أصدقائه وقال: «سنتوقف هنا يا أصدقائي، إنه رجل غني وقريبي.»

لم يستطع «وانج لانج» التحرك من الرعب، كانوا قد اندفعوا

قبله إلى داخل البيت، فركض «وانج لانج» يسابقهم كي يبحث عن ابنه الأكبر، وعندما سمع الابن الأكبر بما حدث مع والده بدأ يئن من الغيظ وخرج، لكنه رأى ابن عمه ورأى أن كل رجل من الجنود يحمل سكينًا فقال: «مرحبًا ابن عمي. أهلًا بك في بيتك مرة ثانية، سنعد وجبة حتى يتناولها هؤلاء الضيوف قبل الرحيل.» قال ابن عمه وهو يبتسم: «افعل، ولكن لا داع للعجلة، لأننا سنستريح هنا عدة أيام أو شهر قمري أو سنة أو سنتين، لأننا سنظل في هذه المدينة حتى ينادى للحرب.»

تظاهر الابن الأكبر لـ «وانج لانج» بأنه يجب أن يذهب من أجل إعداد الطعام. فأخذ بيد أبيه واندفع كلاهما إلى الأجنحة الداخلية وأغلق الابن الباب بالمفتاح. ثم جاء الابن الأوسط وقرع الباب وقال وهو يلهث: «الجنود في كل مكان وفي كل بيت، علينا أن نعطيهم كل ما يريدون، ونتمنى أن تنتهي الحرب قريبًا.» وقال الابن الأكبر: «علينا أن نضع جميع النساء معًا في أبعد جناح بالبيت وأن نحرص على إغلاق الأبواب.»

فعلوا كل ذلك، وكان «وانج لانج» والابن الأكبر يراقبان البوابة ليلًا ونهارًا، وكان الابن الأوسط يساعدهما كلما استطاع.

لكن كان هناك ابن عمهم، ولأنه من أقربائهم، فلا أحد يستطيع منعه من الدخول، فكان يتجول كما يريد، وكان يحمل سكينًا في يده تلمع بشكل واضح، وينظر لهذه وتلك من النساء. وبعدما شاهد كل شيء، ذهب لزيارة أمه، ودخل «وانج لانج» معه ليريه أين تكون. كانت راقدة على فراشها ونائمة بعمق حيث استطاع ابنها أن يوقظها بصعوبة، حملق فيها جيدًا ليرى ما آلت إليه، وعندما غطت في النوم مرة أخرى، خرج وهو يتكئ على بندقيته كما لو كانت عصا.

● **ابن العم مرة أخرى:**

لم يكره «وانج لانج» وأفراد أسرته أحدًا من الجموع المحتشدة في الغرف الخارجية قدر ما يكرهون ابن عمه، حيث كان يدخل ويخرج كما يريد وينظر إلى الإماء. لاحظته «كوكو» وقالت: «هناك حل واحد الآن يمكننا أن نفعله، لابد أن نعطيه أمة يتزوجها طوال فترة بقائه هنا.» فطلب منها «وانج لانج» أن تذهب إلى ابن عمه وتسأله أي الإماء يريد.

وهكذا فعلت «كوكو» ما طلبه «وانج لانج» ثم عادت وقالت إن ابن العم يريد الأمة الصغيرة الشاحبة التي تنام عند أرجل فراش سيدتها.

كانت تلك الفتاة تدعى «بير بلوسوم» وهي التي اشتراها «وانج لانج» في عام المجاعة، وكان الجميع يعاملها بعطف لأنها كانت رقيقة، وكانوا يسمحون لها بالقيام بأعمال بسيطة جدًا تخص «لوتس».

عندما سمعت «بير بلوسوم» بذلك بكت كما لو كانت ستموت من الحزن، وركضت إلى «وانج لانج» وأحنت رأسها عند قدميه، فقال لـ«لوتس»: «لنرى ما يمكن فعله حتى نرسل أمة أخرى إلى ابن عمي.»

لذلك اصطحبت «كوكو» أمة جريئة بلغت العشرين من عمرها إلى ابن عم «وانج لانج» ليتزوجها، وكانت الفتاة الهزيلة لا تزال متشبسة بأقدام «وانج لانج» فلاحظ أن وجهها ناعم وعينيها حادتان، كما أنها رقيقة وشاحبة وشفاهها حمراء. فرفعت عينيها ونظرت إليه جيدًا ثم تركته وانصرفت.

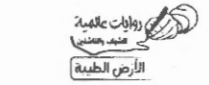

32 زوال الغمة

عاش ابن عم «وانج لانج» معهم لمدة شهر ونصف، ثم نودي فجأة للقتال فرحل مع بقية الجنود. لكن الأمة التي تزوجها أنجبت بنتًا بعد رحيله فأعطاها «وانج لانج» فضة وأمرها أن تعتني بزوجة عمه طوال حياتها، وعندما ماتت زوجة عمه، أرسل تلك الأمة لواحد من رجاله حيث طلبت منه أن يزوجها لفلاح فأخذها الرجل وهو ممتن لأنه كان فقيرًا جدًا لا يستطيع الزواج سوى من مثل تلك الأمة.

الآن يشعر «وانج لانج» أن الأمن قد حل به فعلًا، فهو يقترب من الخامسة والستين من عمره. لكن هيهات، حيث أن زوجتي ولديه يكرهان بعضهما البعض، وامتدت تلك الكراهية إلى الرجال وكان جناحهما في البيت الكبير يزخران بكثير من السخط.

● مشكلة مع لوتس:

كما أن هناك مشكلة أخرى يعاني منها «وانج لانج» في علاقته مع «لوتس» بدأت منذ اليوم الذي حافظ فيه على أمتها ولم يعطها لابن عمه. كانت تشعر بالغيرة من الأمة فأرسلتها بعيدًا عن الغرفة التي يدخل فيها «وانج لانج» عندها. ثم لاحظ «وانج لانج» أن البنت جميلة جدًا وشاحبة فبدأ يفكر فيها كثيرًا.

ويبدو أن مشكلات النساء وحدها في بيت «وانج لانج» لم تكن كافية، حيث جاء إليه ابنه الأصغر الذي كان قد خالط الجنود وعاش

بينهم وقال له: «أنا الآن أعرف ماذا أريد. سأكون جنديًا وأذهب إلى الحروب.»

صاح «وانج لانج» وقال: «ما هذا الجنون، ألا يمكنني أن أشعر بالراحة مع أولادي أبدًا ؟» فرد الفتى فجأة: «ستحدث حرب لم نسمع عن مثلها من قبل، ستقوم ثورة ويحدث قتال لم يسبق له مثيل، ستتحرر أرضنا !»

رد «وانج لانج» متعجبًا: «أنا لا أعرف شيئًا عن كل ذلك، أرضنا حرة، أنا أؤجرها لمن أريد وأنت تأكل وتُكسى من خيرها، لا أعرف ما هي الحرية التي تريدها أنت أكثر من ذلك.»

لكن الفتى غمم بمرارة: «أنت عجوز جدًا ولا تفهم أي شيء.» فكر «وانج لانج» قليلًا ثم قال ببطء «حسن سنزوجك قريبا يا بني.» فأجاب الابن: «أنا لست رجلًا عاديًا، أنا لدي أحلامي الكثيرة، أحلم بالعظمة. ولا توجد عندنا من هي جميلة سوى تلك الصغيرة التي تخدم زوجتك في القسم الداخلي.»

علم «وانج لانج» أن ابنه يتحدث عن «بير بلوسوم» فانتابته غيرة غريبة. وعندما ذهب ابنه، قال لنفسه مغمغمًا: «لم يعد هناك أي مكان مريح في هذا البيت.»

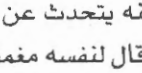

33 زوجة جديدة لوانج لانج

لم يستطع «وانج لانج» النوم من التفكير فيما قاله ابنه الأصغر عن «بير بلوسوم» كما أن التفكير فيها قد ملأ عقله. لم يقل أي شيء لأحد، لكنه كان يجلس في الغرفة بمفرده. لذلك كان اليوم يمر طويلا وهو وحيد بالغرفة. وعندما جاء الليل كان لا يزال بمفرده ولم يكن هناك أي شخص يمكن أن يبوح معه بمكنون صدره. وبينما هو جالس في الظلام تحت شجرة مر شخص بالمكان الذي يجلس فيه فلمحه بسرعة، كانت «بير بلوسوم».

● **زواج جديد:**

نادى «وانج لانج»: «بير بلوسوم». فجاءت وهوت إلى الأرض ممسكة بقدميه، فقال لها: «أنا رجل كبير في السن، كبير جدًا.» فقالت: «أنا أحبك، فأنت حنون جدًا.» فامتلأ قلبه بحب كبير لتلك الفتاة.

والآن ... وبعد زواج «وانج لانج» من «بير بلوسوم»، لم يعد يفصح عما يفعل بسرعة، فلم يقل أي شيء على الإطلاق، ولماذا يقول، فهو سيد البيت. لكن «كوكو» علمت بالأمر قالت له: «لابد أن أخبر سيدتي.» كان «وانج لانج» يخشى غضب «لوتس» فوعد «كوكو» بحفنة من الفضة وبتحقيق أي شيء تريده «لوتس».

لم يتبق سوى أولاده الثلاثة، فجاءوه واحدًا تلو الآخر، حيث جاء ابنه الأوسط أولًا فتحدث مع أبيه عن الأرض والحصاد، وكان يتلفت هنا وهناك أثناء الحديث وينظر إلى ما في الغرف ليتأكد مما إذا كان ما سمعه صحيحًا أم لا، فصاح «وانج لانج»: «احضري لي شايًا يا صغيرتي، وشايًا لابني.» فظهرت «بير بلوسوم» وحملق فيها الابن الأوسط لكنه لم ينطق بشيء، وتحدث مع أبيه بعض الوقت. تأكد الابن مما جاء ليشاهده

فانصرف. وقبل مرور منتصف نفس اليوم جاءه الابن الأكبر، كان «وانج لانج» يخشى كبرياء ابنه ولم ينادي «بير بلوسوم» أول الأمر، لكنه رأي ابنه الأكبر على حقيقته، فهو رجل كبير الجسم لكنه يخاف من زوجته بنت المدينة، لذلك لم يخش «وانج لانج» أي شيء من ابنه ونادى على «بير بلوسوم»: «تعالي يا صغيرتي لتصبي الشاي مرة أخرى لواحد من أبنائي.» جلس الرجل وابنه صامتين بينما كانت «بير بلوسوم» تصب الشاي، وأخيرًا قال ابنه: «لم أصدق أن الأمر كذلك.» رد «وانج لانج»: «ولم لا، هذا بيتي، وهي أمتي.»

لم يقل الابن الأكبر أي شيء آخر وخرج. وعندما حل الليل، جلس «وانج لانج» في جناحه وقد أضيئت الشموع الحمراء على طاولة وكان يدخن، بينما جلست «بير بلوسوم» صامتة عند الطرف الآخر من الطاولة. وكانت تقبض يديها وتضعهما فوق ساقيها. كانت أحيانًا تنظر إلى «وانج لانج» وهو ينظر إليها فخورًا بما فعل. ثم جاء ابنه الأصغر فجأة ووقف أمامه، فلم يره أحد وهو داخل، كانت عينا الشاب لامعتين وكان يركزهما على والده، ثم أخيرًا قال بصوت خفيض: «الآن سأذهب لأعمل كجندي ...» وفجأة شعر «وانج لانج» بالخوف من ابنه الذي لم يحفل به منذ ولادته، كرر الابن كلامه: «سأذهب الآن ... سأذهب الآن... سأذهب الآن.»

ثم توقف الابن فجأة ونظر إلى الفتاة ونظرت إليه، ثم غطت وجهها بكلتا يديها حتى لا تراه. غض الشاب بصره عنها وخرج من الغرفة وساد السكون. وبعد فترة التفت «وانج لانج» إلى الفتاة وقال بلطف وحزن: «أنا كبير جدًا في السن يا حبيبتي، وأنا أعرف ذلك.» إلا أن الفتاة رفعت يديها من على وجهها وصاحت: «لكني أفضلك أنت.»

وفي صباح اليوم التالي، رحل الابن الأصغر لـ «وانج لانج» ولا أحد يعلم إلى أين ذهب.

34 اقتراب النهاية

أصبح «وانج لانج» الآن رجلًا طاعنًا في السن، إلا أنه كان مغرمًا بـ«بير بلوسوم» وكان يسعد بوجودها في جناحه. وقد كانت لطيفة مع ابنته البلهاء من أجل إرضائه مما أسعده كثيرًا فعهد بها إليها لتعتني بها بعد وفاته.

كان «وانج لانج» كثيرًا ما يختلي بنفسه وكان يعيش وحيدًا لفترات أطول، لكنه كان يقضي وقتًا مع ابنته البلهاء و«بير بلوسوم». وكان ينظر أحيانًا إلى «بير بلوسوم» ويقول لها، هذه الحياة هادئة أكثر من اللازم بالنسبة لك يا حبيبتي.» إلا أنها كانت ترد دائمًا برقة وعرفان بالجميل: «إنها هادئة وآمنة وأنت تعطف علي.» لم يقل «وانج لانج» أي شيء لأنه كان يحب العيش في سلام قبل كل شيء، كان كل ما يحلم به هو أن يحيا في جناحه بالقرب من هاتين فقط.

جلس «وانج لانج» وزاد عمره يومًا بعد يوم وسنة بعد سنة، فقال لنفسه إن حياته قد انتهت بهذه الطريقة وكان راضيًا بحاله. وكان أحيانًا يذهب لبقية الأجنحة وأحيانًا يرى «لوتس» وكانت تحييه بطريقة مقبولة، فقد أصبحت عجوزًا هي الأخرى وراضية بما لديها من طعام وشراب مما تشتهي وكذلك الفضة التي تعطى لها عندما تطلبها. جلست هي و «كوكو» الآن كصديقتين تتحدثان بعد مرور كل تلك السنوات، فكانتا تأكلان وتشربان وتنامان ثم تستيقظان للحديث من جديد.

● **كثرة الأحفاد:**

وعندما كان «وانج لانج» يذهب إلى جناح أبنائه كانوا يركضون

ليعدوا له الشاي، وكان كثيرًا ما يكرر نفس السؤال لأنه كثير النسيان: «كم حفيد عندي الآن ؟» وكان أحدهم يرد بسرعة: «أنجب أبناؤك أحد عشر ولدًا وثمان بنات.» كان يجلس لفترة قليلة مع الأطفال ويسألهم، هل تذهبون إلى المدرسة وتدرسون الكتب الأربعة[1].» فكانوا يضحكون لأنه رجل كبير جدًا ويقولون: «لا يا جدي، لا أحد يدرس الكتب الأربعة بعد قيام الثورة.»

ثم توقف «وانج لانج» بعد فترة عن الذهاب إلى غرف أبنائه، إلا أنه كان يسأل «كوكو» ويقول: «هل زوجات أبنائي على وفاق الآن بعد مرور كل تلك السنوات ؟» وكانت «كوكو» تبصق على الأرض وتقول: «هاتان ؟ إنهما كالقطط المتربصة لبعضها البعض.» وفي وقت آخر كان يسأل «كوكو»: «ألا توجد أي أخبار عن ابني الأصغر أو أين ذهب؟» وكانت «كوكو» لا يغيب عنها صغيرة ولا كبيرة في ذلك البيت فتقول: «يقال إنه في منصب كبير بالجيش، منصب كبير فيما يسمى بالثورة التي في الجنوب.»

وأحيانًا كان «وانج لانج» ياخذ خادمًا وفراشًا ويذهب إلى بيته الريفي وينام هناك في ذلك البيت المشيد من اللبن. وذات يوم في أواخر الربيع، ذهب إلى حقوله القريبة حتى وصل إلى مكان المقبرة التي دفن فيها موتاه، فنظر إلى القبور وتذكر كل واحد ممن دفنوا فيها. فقد كانوا محببين له أكثر من أي من الأحياء الآن فيما عدا «بير بلوسوم» والابنة البلهاء. وفجأة خطر على باله خاطر فقال: «سأكون الوافد التالي إلى هذه القبور.» ثم نظر إلى قطعة الأرض التي سيدفن فيها وتخيل

(1) كتب التعاليم الخاصة بكونفوشيوس وكانت تُدرس بالصين قبل الثورة. (المترجم)

نفسه يرقد فيها حتى يظل في داخل أرضه إلى الأبد. ثم غمغم: «لابد أن أرى نعشي.»

اشترى ابنه نعشًا بعد ذلك من خشب لا يستخدم سوى في صناعة النعوش لأنه صلب كالحديد، فشعر «وانج لانج» بالراحة.

ثم أصر على أن ينتقل إلى بيته الريفي بجوار الأرض، فأخذ «بير بلوسوم» وابنته البلهاء والنعش وكل ما يلزمهم من خدم وعاد إلى مسقط رأسه.

● **الزوجة الثانية للابن الأكبر:**

جلس «وانج لانج» في حرارة فصل الخريف بجوار الحائط الذي كان يجلس عنده أبيه ولم يعد يفكر في أي شيء سوى طعامه وشرابه وأرضه. وأحيانًا كان يشكو من أن أبناءه لا يأتون إليه كل يوم، وكانت «بير بلوسوم» تقول: «لديهم كثير من الأمور التي تشغلهم، لقد اتخذ ابنك الأكبر مكانه بين أغنياء المدينة وتزوج من زوجة ثانية، وابنك الثاني يقيم متجرًا كبيرًا خاص به ويبيع فيه الحبوب.» كان «وانج لانج» يسمع ما تقول وينساه بمجرد أن ينظر إلى أرضه.

● **مكر الأبناء:**

لكنه كان منتبهًا بوضوح ذات يوم. وكان ولداه قد جاءا في هذا اليوم فمروا حول البيت على طرف الأرض وهو يتبعهما بصمت، فسمع ابنه يقول: «سنبيع هذا الحقل، وهذا ... وسنقسم المال بالتساوي بيننا ...»

سمع العجوز كلمات «نبيع الأرض» فصاح بصوت عال: «أيها الأبناء

الأشرار، أتبيعون الأرض ؟» فطيبا خاطره وقالا: «لا ... لا ... لن نبيع الأرض أبدًا ... »

رد «وانج لانج»: «تكون نهاية أسرتي عندما نبيع الأرض ... من الأرض خرجنا وإليها نعود.» ثم انحنى وأخذ حفنة من تربة الأرض وأمسكها بيده وهو يغمغم: «ستكون النهاية إذا بيعت الأرض.»

سنده ولداه، واحدًا من كل جانب وظل ممسكًا بحفنة التربة الدافئة، فطيبا خاطره وكررا مرات ومرات: «اطمئن ... لن تباع الأرض ... لن تباع الأرض.»

لكنهما ابتسما إلى بعضهما من وراء ظهره.

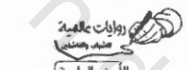

obeikandl.com

روايات أخرى وكتب ترجمها أكرم مؤمن إلى اللغة العربية

- **الروايات:**

حول العالم في ثمانين يومًا – جول فيرن

كونت دي مونت كريستو – ألكسندر توماس

مختارات من روائع الأدب العالمي

- **الكتب:**

كفاحي – أدولف هتلر

اليهودي العالمي

الأمير – نيقولو مكيافيللي

ضد مكيافيللي – فريدريك الثاني ملك بروسيا

فن الحرب – سون تزو

obeikandl.com

المحتويات

مسلسل	عنوان	صفحة
	مقدمة المترجم	3
	نبذة عن المؤلفة	5
1	يوم الزفاف	9
2	حياة جديدة	22
3	أول طفل	25
4	سعادة واستقرار	29
5	زيارة للبيت الكبير	32
6	أرض جديدة وطفل ثان	35
7	بدأت المشكلات	37
8	الجفاف	41
9	الهجرة	45
10	سفر إلى الجنوب	50
11	بداية بائسة في الجنوب	52
12	أجانب في الجنوب	59
13	غربة وفقر مدقع	61
14	مشكلات الغربة	64
15	عـودة	71
16	مزيد من الثروة	74

مسلسل	عنوان	صفحة
17	أراض وثيران وعمال	80
18	الفيضان	84
19	حب ووقت ضائع	89
20	عودة العم الشرير	92
21	مشكلات من جديد	97
22	عودة إلى العمل الشاق	102
23	زيجة مناسبة للابن	105
24	المشكلات تتفاقم	110
25	عمل للابن وزواج للبنت	114
26	أفراح وأحزان	119
27	الفيضان مرة أخرى	127
28	حفيد وأخبار طيبة	133
29	الانتقال إلى المدينة	138
30	إسراف واضح	143
31	الحرب	147
32	زوال الغمة	150
33	زوجة جديدة لوانج لانج	152
34	اقتراب النهاية	154

obeikandl.com